

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

خطب المناسبات

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤١هـ / ٢٠١٩م





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

[يوسف: ١٠٨].

□

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـد:

فيسرنا أن نقدم للسادة الأئمة والخطباء والمثقفين والمعنيين بالشأن الدعوي في مصر والعالمين العربي والإسلامي وكل دول العالم نخبة مختارة من خطب المناسبات التي تم أداؤها بالفعل في إطار خطة وزارة الأوقاف المصرية ، آملين أن تشكل إضافة متميزة إلى المكتبة الدعوية ، وأن تكون زادًا علميًّا وفكريًّا ومعرفيًّا في بابها.

ويضم الكتاب ثلاثين خطبة تتناول الحديث عن الهجرة النبوية المشرفة ، والمولد النبوي الشريف ، وذكرى الإسراء والمعراج ، وتحويل القبلة ، وشهر رمضان المبارك ، وحج بيت الله الحرام ، وغيرها من الموضوعات ، سائلين الله (عز وجل) أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يكتب له السداد والقبول.

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ. د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف

□

في استقبال عام جديد

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائل في كتابه الكريم:{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٣٦] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يوم الدِّين.

وبعـد:

فإن من سنن الله (عز وجل) في الكون اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الشهور والأعوام ، وأن كل يوم يمر على الإنسان – هو جزء من حياته – سيكون شاهدًا له أو عليه ، فما من يوم إلا وينادي: يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنمني ، فإن غابت شمسي لن تدركني إلى يوم القيامة ، فالإنسان بين أجلين: أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باقٍ لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، والعاقل من يأخذ من شبابه لشيبته ، ومن صحته لسقمه ، ومن دنياه لآخرته.

ولقد بين القرآن الكريم للمسلم عدة شهور السنة الهجرية ، قال الله تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا

فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة :٣٦].

وقد علَّمنا النبي (صلى الله عليه وسلم) كيف نستقبل الشهور والأعوام ، ففي الحديث الذي رواه الإمام الترمذي (رحمه الله) بسنده من حديث طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا رأى الهلال قال: "اللَّهُمَّ أَهْلِلْهُ عَلَيْنَا بِالْيمنِ وَالإِيمَانِ وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَمِ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ" فيعلمنا النبي (صلى الله عليه وسلم) استقبال الشهور والأعوام بالأمل في غدٍ أفضل من خلال طلبه من ربه أن يبدأ الشهر (باليمن والسلامة والإيمان والإسلام) ، وهي إشارة إلى أن رب الهلال الذي يرمز إلى الزمن هو الله ، وهو القادر على تغيير حال المسلم إلى الأفضل في الدنيا وكذا في الآخرة.

ولقد لفت القرآن الكريم أنظارنا تجاه قيمة هذا الزمن وأهمية استثماره ، فتبرز قيمة الزمن عند الله في كونه من جملة ما أقسم به الله تعالى ، ولا يقسم الله (عز وجل) إلا بما هو عظيم ومكين عنده سبحانه وتعالى ، فتطالعنا أوقات كثيرة يقسم الله (عز وجل) بها ليبرز أهميتها ، ويحث المجتمع المسلم على اغتنامها ، ومن هذه الأوقات الشريفة: قوله تعالى: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ} [الفجر: ١ ، ٢] تنبيهًا للمسلمين بألا يبدءوا يومهم من طلوع الشمس ، بل من طلوع الفجر ، ذلكم الوقت الشريف المبارك بدعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) لمن

بكَّر باستقبال يومه وبدأه بطاعة ربه ، فقد روى الإمام الطبراني (رحمه الله) بسنده من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "بُورِكَ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا" (المعجم الأوسط للطبراني) ، وقد أقسم الله تعالى بوقت الضحى فقال تعالى: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ١ ، ٢] تنبيهًا لشرف هذا الزمان وما ينبغي أن يفعل فيه ، فقد أوصى رسولنا (صلى الله عليه وسلم))الأمة في شخص سيدنا أبي هريرة (رضي الله عنه) حيث قال في الحديث الذي رواه الإمام البخاري (رحمه الله) بسنده من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قَالَ: "أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلاَثٍ لاَ أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَصَلاَةِ الضُّحَى ، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ" (صحيح البخاري) ولا يوصي الخليل خليله إلا بما هو غالٍ ، وما له مكانة في قلبه.

كما أقسم الله تعالى بوقت قد يُشغَل بعض المسلمين عنه ، وهو وقت العصر ، فقال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:١-٣] تنبيهًا لعدم تضييع الآخرة بالانشغال بالدنيا ، وتلك هي الوسطية الربانية التي أرسى الله تعالى معالمها للأمة الإسلامية ، بألا ينغمس الإنسان في الدنيا فتكون شغله الشاغل ، ولا يصرف نفسه بالكلية عن الدنيا ويحرِّمها على نفسه ؛ بل يتزود من الدنيا للآخرة يأخذ نصيبه منها ولا يجور على نصيب الآخرة ، فقال تعالى مرشدًا

المجتمع المسلم: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٧٧].

وقد أقسم الله تعالى بأجزاء كثيرة من النهار ، تنبيهًا لحسن استثمارها ، واستضافة كل يوم يمر عليك بما يمكن أن يدر بالنفع على المسلم ، ولذا فقد أوصى الصالحون بأن "نهارك ضيفك فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمك وكذلك ليلتك" (أدب الدنيا والدين) ، فعلى المسلم أن يحسن الاستفادة من هذا الضيف الكريم الذي إذا رحل لن يُعوَّض ولن يأتي إلى يوم القيامة.

لقد بين لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الناس في غفلة عن هذه النعمة ، نعمة الزمن وعن استثماره في النافع المفيد ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ" (صحيح البخاري) ، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء ، وقد وهبنا الله تعالى نعمة الحياة ومدَّ في أعمارنا عامًا بعد عام حتى أدركنا هذه الأوقات المباركات ، والفراغ هو هذا الوقت الذي نحيا فيه ونعيش ، فكيف يتمكن الإنسان من أن يستثمر عمره ، ويجعله عمرًا مباركًا من خلال الاستفادة من الزمن فيما يعود عليه بالربح الوفير ، ويعود على مجتمعه ووطنه الذي يعيش تحت ظلاله بالتقدم والازدهار والرقي ، فقد روى

الحاكم (رحمه الله) بسنده من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لرجل وهو يعظه: "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ" (المستدرك للإمام الحاكم).

إنه يُعلّم المجتمع المسلم أن يغتنم هذه الأمور الخمسة التي على رأسها الاستفادة من أخصب فترة من فترات عمر الإنسان ، وهي فترة الشباب والفتوة التي بها يصنع الشاب مستقبله ، ويغير وجه الأرض بساعديه وفكره المستنير ، ويرفع قدره عند ربه يوم القيامة ، ويعود بالخير العميم على وطنه بما يقدم من أعمال جليلة ، وبذلك يحافظ على عمره وشبابه ، ويغتنمه فيما ينفع ويفيد الإنسانية من خلال ما فتح الله له من آليات وظَّفها كما ينبغي أن توظف.

لقد فهم أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قيمة الوقت فقدروه حق قدره ، فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: "إِنِّي لأَكْره أَن أَرَى أحدكُم فَارغًا سَبَهْلَلاً ، لا فِي عمل دنيا وَلا فِي عمل آخِرَة" (الآداب الشرعية).

ويقول ابن القيم (رحمه الله): " إن إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة ، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها" (الفوائد لابن القيم) ، ناهيك عما دونه بعض أهل

العلم من هدي للنبي (صلى الله عليه وسلم) فيما ينبغي للمسلم فعله في اليوم والليلة من ذكر واستثمار للوقت في أعمال الطاعة ، وقضاء حوائج الناس بما يثمر نفعًا وخيرًا وبرًّا وغيرها ، التي تبين منهج الإسلام في الاستفادة من الوقت ، فاليوم أو الليلة آية من آيات الله ينبغي الحفاظ عليها ، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} [الإسراء:١٢] .

والمسلم الفطن هو من يحسن استخدام نهاره الذي هو جزء منه، فيضيف إلى رصيد حسناته ومآثره فيه بقدر ما يستطيع من أعمال وفق طاقته وقدراته التي وهبه الله تعالى إياها ، وكذا يستثمر ليله في الاستعانة به على ما يلاقيه من متاعب طوال ليله ، وهذا ما رسمه الحق تبارك وتعالى للمسلم من جعل الليل سكنًا وراحة ، والنهار معاشًا وجدًّا ونشاطًا ؛ فقال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [النبأ:١٠ ، ١١] ، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} [الفرقان:٤٧].

ومع استقبال العام الهجري الجديد يحاسب المرء نفسه ويراجعها ، فيقف على ما قصرت فيه ، فيستدركه ، وما قام به من عمل صالح فيداوم عليه ؛ فإن المؤمن في رباط دائم ، وصبر ومصابرة ، وجهاد ومجاهدة مع النفس والشيطان ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:٢٠٠]

ومع محاسبة النفس أولاً بأول يستطيع المؤمن أن يسعد في حياته وآخرته ، ويحظى برضوان الله تعالى ، ومن كان هذا حاله مع نفسه فهو الذكي العاقل ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، قَالَ: "الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ" (سنن الترمذي).

ولقد كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، يكتب إلى بعض عماله، فكان في آخر ما يكتب: "أَنْ حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ، فَإِنَّهُ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ عَادَ مَرْجِعُهُ إِلَى الرِّضَا وَالْغِبْطَةِ وَمَنْ أَلْهَتْهُ حَيَاتُهُ وَشُغْلُهُ بِهَوَاهُ عَادَ مَرْجِعُهُ إِلَى النَّدَامَةِ وَالْحَسْرَةِ، فَتَذَكَّرْ مَا تُوعَظُ بِهِ لِكَيْ تَنْتَهِيَ عَمَّا يُنْتَهَى عَنْهُ" (شعب الإيمان للبيهقي).

إن الأمة التي تستثمر وقتها وتحاسب نفسها لهي أجدر بالقيادة والريادة والخيرية ، وهكذا حال الأمة الإسلامية التي نهلت من رسولنا (صلى الله عليه وسلم) وصنعت على هديه ، فقد صنعت حضارة غيرت وجه التاريخ ، تستلهم منها كل الأمم منطلقاتها نحو التقدم والرقي في شتى فروع العلم والمعرفة: في الطب ، والهندسة ، والصيدلة ، والفلك ، وكل العلوم الإنسانية ، ناهيك عن العلوم الدينية التي كانت منطلقات لهذه العلوم والمعارف ، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ

وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٨٨] .

وقال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت:٥٣].

ومن ثم فإن الأمم الراقية صاحبة الحضارة هي التي اتخذت من الوقت قيمة عظمى ، وأعلت دور العلم والعلماء وأجزلت الأجر للعاملين ؛ فنهضت وارتقت وصارت على رأس الأمم.

وعليه ونحن نستقبل عامًا هجريًّا جديدًا علينا أن نحاسب أنفسنا على عام مضى وانقضى بكل ما كان فيه من تقصير في جنب الله ، وفي حق وطننا ، ومجتمعنا المسلم ، ومجتمعنا الإنساني كله ، وما حدث فيه من إساءة إلى ديننا ؛ إذ لم يعرض في صورته الحقة ، صورة الدين السمح الوسطي المعتدل ، وما أثاره هذا العرض السيئ من غير المتخصصين من تفرق واختلاف دبّ في المجتمع المسلم ، ناهيك عن آثار هذا التدين الشكلي من تخلف اقتصادي واجتماعي وثقافي وفكري . ومحاولة أعداء المسلمين استنزاف طاقات علماء الأمة في الرد على مثيري هذا الفكر المتطرف المتشدد يمنة أو يسرة ، ومحاولة شغلهم عن إيجاد حلول جذرية للقضايا المصيرية للأمة

الإسلامية عملاً بقوله تعالى:{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام:٣٨].

فإذا أردنا أن نحسن استقبال هذا العام الهجري الجديد ، فعلينا أن نعلي قيمة الوقت في حياتنا اليومية ؛ لأنه هو الحياة ، وعلى الأمة أن تفسح المجال لعلمائها الأزهريين المتخصصين في حقل الدعوة لعرض التدين الحقيقي الذي لا غلو فيه ولا تطرف بمنهج وسطي رباني معتدل ، يمنح المسلم الفرصة لقيادة البشرية إلى تعبيدها لله رب العالمين ، وتعميرها لكونه الفسيح.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

مع بداية العام الجديد نتمنى ألا يكون حبنا لديننا أو وطننا حبًّا أجوف ، حبَّ أخذ لا حب عطاء ، ولا حتى تبادل حقوق وواجبات ، إننا نريد تجاوز هذه المراحل ، فننتقل من ادعاء حب الأوطان إلى حب حقيقي يقوم على التضحية في سبيله ، والعمل لأجل إنقاذه من

كبواته وعثراته ، سعيًا إلى تقدمه ورقيه ، وأن يبدأ كل منا بنفسه ، ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة .

فيروي الترمذي (رحمه الله) بسنده من حديث حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً ، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا" (سنن الترمذي) ، وبخاصة أن حق الدين وحق الوطن يدفعان إلى العمل لا إلى الكسل .

ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه أحمد (رحمه الله) بسنده من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ" (مسند أحمد).

وقد روى الطبراني رحمه الله بسنده من حديث كَعْبِ بن عُجْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ

كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ" (المعجم الكبير للطبراني).

ونقول لكل متخصص في غير العلوم الشرعية: أنت على ثغرٍ من ثغور الإسلام وداعية في تخصصك ، فالطبيب سيسأل عن الناحية الطبية للأمة ، والمدرس سيسأل عن الناحية التربوية لأبناء الأمة ، وأستاذ الجامعة سيسأل عن الناحية الفكرية والعلمية للأمة ، والفلاح سيسأل عن إطعام الأمة كلٌّ في مجاله داعية .

فلو انشغل كلٌّ منا بمجاله وتخصصه الذي وضعه الله فيه ، وأدى دوره كما ينبغي ، فسيؤدي ذلك إلى طفرة علمية هائلة نرجع بها إلى ما كان عليه سلفنا الصالح ، ونكون مجتمعًا متكاملاً ، لا متصارعًا ، ونكون مجتمعًا منتجًا ، لا مستهلكًا ، ونكون مجتمعًا متوحدًا على إعلاء المصلحة العليا للوطن؛ فنبنيه ونعمِّره ونرتقي به ونجمِّله.

إننا نأمل في مجتمع يكفل الغني فيه الفقير ، ويحترم الصغير فيه الكبير ، ويحنو فيه الكبير على الصغير ، فيصدق فينا الوصف الذي وصف به النبي (صلى الله عليه وسلم) المجتمع المؤمن فيما رواه الإمام مسلم (رحمه الله) بسنده من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (متفق عليه) ؛ لنكون على

رأس الأمم، لا في ذيلها ، ونكون بحق واجهة مشرفة لدين الله (عز وجل) ، وترجمة عملية للدين الإسلامي الحنيف ، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا ؛ لما يرونه من صورة مشرقة للإسلام عبادة ومعاملة وسلوكًا حضاريًّا في شتى المجالات وتحت أي ظروف وملمَّات.

فعلينا إذًا أن نستقبل هذا العام الهجري الجديد بروح مفعمة بالإيمان ، يدفعها الأمل إلى بذل الجهد والمزيد من العمل في كل المجالات ، ولنراجع ما فات ، فنجبر التقصير ، ونثمن النجاح ، ونستثمر الوقت ، ونحافظ على الإنجاز ، ونتآلف ونتحاب ؛ لنسعد بالفوز برضوان الله (عز وجل).

* * *

الهجرة النبوية بين التخطيط البشري والتأييد الإلهي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائل في كتابه الكريم: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

ففي مثل هذه الأيام المباركة من كل عام يحتفل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، ونحن حين نحتفل بهذه الذكرى العطرة إنما نفعل ذلك للعبرة والتأسي وأخذ الدروس المستفادة منها ، فالمتدبر لمعاني الهجرة الشريفة يستنبط منها دروسًا عظيمة ، ويستخلص منها فوائد جمة ، ويلحظ فيها حِكمًا باهرة يستفيد منها الفرد والمجتمع في شتى مجالات الحياة ، فالهجرة مع التخطيط والأخذ بالأسباب لم تخلُ من مظاهر التأييد الإلهي ، والحفظ الرباني ، يتضح ذلك مما يلي:

الهجرة والأخذ بالأسباب:

فحين وقف المشركون في طريق دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) ونشر رسالته مستخدمين كل أساليب القمع والبطش والتنكيل

والتعذيب ليثنوه عنها ، ويمنعوه من أدائها ، حتى وصل بهم الجنون إلى العمل على قتله والخلاص منه قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠] ، أخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأسباب التي مكنت لدعوته وساعدت على نشر رسالته دون تقصير أو تكاسل ، فإن الإسلام دين لا يعرف التواكل ، بل يحاربه وينبذه ، ولا يعرف التواني والكسل والخمول ، وإنما هو دين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:٩٧].

وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" (سنن الترمذي) ، تغدو: تذهب أول النهار ، وتروح: ترجع آخر النهار .

فهو (صلى الله عليه وسلم) مع علمه الكامل بربه وهو القائل عن نفسه: "فأَنَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ" (صحيح ابن خزيمة) ، ويقينه التام بوعده له بنصرة دينه وتأييده ، إلا أنه (صلى الله عليه وسلم) أعد لحادثة الهجرة عدتها ، واتخذ لها ما يقدر عليه من الأسباب ، فالأخذ بالأسباب هو طريق الحصول على ما عند الله (عز وجل) ، مع مواصلة العمل الجاد المحكم وقوة العزم وإخلاص النية وصدقها.

لهذا رأينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتخذ من الأسباب ما يقدر عليه ، في إعداده لرحلة الهجرة ، وترتيب كل ما يلزم لها ، حيث كان (صلى الله عليه وسلم) حريصًا على تدبر أموره سرًّا ، وقد ظهر ذلك واضحًا حينما جاء ليخبر الصديق (رضي الله عنه) بأن الله قد أذن له بالهجرة ، تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها) – كما في صحيح البخاري وغيره –: "اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) أَبُو بَكْرٍ فِي الْخُرُوجِ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأَذَى فَقَالَ لَهُ: "أَقِمْ" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "إِنِّي لأَرْجُو ذَلِكَ" ، قَالَتْ: فَانْتَظَرَهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ ظُهْرًا" ، وفي الرواية: "أنه جاء متقنعًا" ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: "أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ..." (صحيح البخاري). فلنتأمل حرص النبي على أن يأتي إلى أبي بكر متقنعًا لئلا يُعرَف ، ولا يدري أحد بحركته وتوجهاته.

التخطيط ضرورةٌ من ضرورات الحياةِ ، وسبب من أسباب النجاح :

لما أذن الله – تعالى – لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة أعد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) لكل أمر عدته بالرغم من عصمة الله له ، وذلك باختياره الوقت المناسب ، والرفيق المناسب ، وأساليب التعمية والتمويه على القوم ، فكان (صلى الله عليه وسلم) مثالاً يحتذى للقائد والمعلِّم ، فتراه يضع خطة الهجرة بمنتهى الدقة

والحكمة مستخدمًا الفكر والعقل ، واثقًا في نصر الله (عز وجل) أولاً وأخيرًا.

ويتجلى ذلك في توزيع الأدوار وعدم احتكار المهام ، فيستدعى ابن عمه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ؛ لينام على فراشه الشريف ؛ على سبيل التمويه للمتربصين بأنه (صلى الله عليه وسلم) ما زال في فراشه ، ويسلك (صلى الله عليه وسلم) طريقًا وعِرًا غير مأهول ولا معتاد ؛ لتضليل المطاردين ، ثم يتجه ناحية الجنوب مع أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يقصد المدينة المنورة شمالاً ، وفي اختياره (صلى الله عليه وسلم) من يهديه الطريق استعانة بذوي الكفاءة من أهل المروءة ، وهو عبد الله بن أريقط الخبير بمجاهل الصحراء.

ومن تخطيطه المحكم أنه (صلى الله عليه وسلم) مكث بغار ثور ثلاث ليال قبل التوجه نحو يثرب ، حتى يهدأ الطلب عليه وعلى صاحبه ، ودبَّر من يأتيه في الغار بالطعام والشراب ، وهي أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) ، وينتقي عبد الله بن أبي بكر (رضي الله عنهما) فيسند له مهمة نقل أخبار قريش ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) راعيًا للغنم ؛ ليخفي آثار عبد الله بن أبي بكر، حتى لا تعرف قريش أين ذهب ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يحسن انتقاء من يقوم بكل مهمة ، وهُو في هَذا كلّه متوكلٌ على الله (تعالى) مُعلن أنه في معية الله ، فيقول لصاحبه: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة :٤٠].

إن هذا التخطيط المُحكم بهذه الدقة من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ليُعلِم أمته أن هذا الدين القويم هو دين التخطيط لأي أمرٍ من الأمور ، فالمؤمن إذا كان قوي الإيمان بالله يعتمد تمام الاعتماد عليه ، لا بد له من إجادة التخطيط في أي أمرٍ يريد أن يبلغه في هذه الحياة ، كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث كان معه نصر الله ، ومعه رعاية الله ، ومعه تثبيت الله ، ومعه كفالة الله ، لكنه لم يهمل التخطيط الدقيق ، فمن أراد أن يتعلم التخطيط فليتأمل هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي أكدت أن الإسلام دين الإعداد الجيد ، والتخطيط السليم ، وقد أمرنا الله بالإعداد في القرآن الكريم في قوله تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠] ، ومن ثم كان التخطيط ضرورةً من ضرورات الحياةِ وسببًا من أسباب النجاح ، وفي ذلك درسٌ بليغ وحكمة عظيمة ؛ إذ إن حسن التخطيط وروعة التدبير لا تعدو أن تكون أسبابًا أُمرنا أن نجتهد في إعدادها دون التعلق بها ، إذ إن الحافظ والناصر و الموفق هو الله سبحانه وتعالى.

تأييد اللّه تعالى لنبيه (صلى اللّه عليه وسلم):

إن المتأمل في الهجرة النبوية الشريفة يجد أنها مظهر من مظاهر تأييد الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) والدفاع عنه ، فأحداثها لا تخلو من مظاهر التأييد الإلهي ، والحفظ الرباني ، ولعل من أعظم تلك المظاهر في تأييد الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم)

وحفظه له: ما وقع له عند خروجه من مكة ، وقد تآمر به كفار قريش ليقتلوه بضربة رجل واحد ؛ ليتفرق دمه في القبائل عملاً بمشورة أبي جهل ، يقول تعالى حاكيًا عن كيدهم وتآمرهم: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠].

وهنا تتجلى العناية الربانية والتأييد الإلهي لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يخرج (صلى الله عليه وسلم) من بيته – بحفظ الله تعالى له ، وفي رعايته وعنايته – وهو يخترق صفوف المشركين ، وفي يده الشريفة حفنة من التراب ، فجعل يذره على رؤوسهم ، وهو يتلو قول الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [يس: ٩] ، فقد أعمى الله أبصار قريش عن مقره فلا يرونه مع سعيهم الدائب في البحث عنه ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا.

أخرج الإمام أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: "تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ ، فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ ، يُرِيدُونَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْتُلُوهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ ، فَأَطْلَعَ اللهُ (عز وجل) نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا ، يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَلَمَّا

أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا ، رَدَّ اللهُ مَكْرَهُمْ ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا؟ قَالَ: لاَ أَدْرِي ، فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ عَلَيْهِمْ ، فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ ، فَمَرُّوا بِالْغَارِ ، فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ ، فَقَالُوا: لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا ، لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ" (مسند أحمد).

ومظهر آخر من مظاهر ذلك التأييد الرباني ، والحفظ الإلهي يتجلى واضحًا ، في خبر سراقة بن مالك وهو يلحق بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه.

فحينما اقترب منهما ، وهو على فرس له ، ورآه أبو بكر وقع في نفسه الخوف والحزن ، فالتفت أبو بكر ، فقال: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" ، وفي ذلك يقول أبو بكر (رضي الله عنه): (..فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ – قَالَ – وَنَحْنُ في جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ (صلبة) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا ، فَقَالَ: "لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا"، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا ، أُرَى ، فَقَال: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ ، فَادْعُوَا لي فَاللَّهَ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ ، فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَى فَرَجَعَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَا هُنَا ، فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ – قَالَ – وَوَفَى لَنَا" (متفق عليه) ، فكان كذلك إذ صد الله سراقة ، وعاد أدراجه بعد أن أعطى الأمان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ،

وعرض عليه الزاد والمتاع ، بل عاد يصد ويرد كل من يلقاه في طريقه يطلب محمدًا وصاحبه.

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر ذلك التأييد الرباني ، والحفظ الإلهي للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، حين خرج بصحبة أبي بكر الصديق وأقاما في غار ثور ثلاث ليال ، وقريش تبحث عنهما في ربوع الصحراء ، وتجعل لمن يأتي بهما مائة من الإبل ، حتى عظم الخطب ، ولما بلغ المشركون باب الغار.

هنالك قال أبو بكر (رضي الله عنه) للرسول (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا" ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) قولة المؤمن الواثق من معية الله تعالى وتأييده له: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا" (صحيح البخاري).

وصدق الله العظيم حيث قال:{إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة :٤٠].

في هذه المعالم من هجرته (صلى الله عليه وسلم) ، يقترن الإعداد البشري بالتأييد الإلهي ، وفي ذلك عبرة وعظة للمسلمين ، بأنهم مكلفون بأن يتخذوا من الأسباب ما يستطيعونه ويقدرون عليه ، دون تقصير أو تكاسل ، ثم يتجردوا من الأسباب ويفوضوا الأمر لرب الأسباب.

معيّة الله تعالى لعباده المؤمنين:

كذلك ينبغي للإنسان أن يعلم أن معية الله تعالى هذه التي نستفيدها من حدث الهجرة النبوية ليست خاصة بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بل إنها عامة لكل مؤمن تقي أخلص لله تعالى في طاعته وأحسن العمل ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨]. وقال (صلى الله عليه وسلم): "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ" (سنن الترمذي). فمن كان في معية الخالق سبحانه وتعالى لن يضره أذى ، وحاشا لله أن يترك أنبياءه وأولياءه أو يتخلى عنهم ، فهو القائل سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر:٥١].

وانطلاقًا من حرص الإسلام على بناء دولة قوية مستقرة متماسكة شرع النبي (صلى الله عليه وسلم) في بناء الدولة بعد هجرته إلى المدينة المنورة ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، ووضع وثيقةً

للتعايش السلمي بين سكان المدينة جميعًا على اختلاف أديانهم وقبائلهم تعد أعظم وثيقة بشرية في تاريخ الإنسانية تؤصل لفقه العيش المشترك بين الناس جميعًا.

* * *

الأخذ بالأسباب في ضوء الهجرة النبوية الشريفة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائل في كتابه الكريم: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعــد:

فإن المتدبر لمعاني الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة يستنبط منها دروسًا عظيمة ، ويستخلص منها فوائد جمة ، ويلحظ فيها حِكَمًا باهرة يستفيد منها الفرد والمجتمع في شتى مجالات الحياة ، فهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن هجرة مكانية – مجرد انتقال من مكان إلى مكان ـ فحسب كما يعتقد الكثير من الناس ، بل كانت في حقيقتها حلقة من حلقات الصراع الدائم والمستمر بين الحق والباطل ، والصراع والتدافع بين الحق والباطل سنة إلهية نافذة ، قد ينخدع البعض فيها بقوة الباطل ، لكن الغلبة دومًا تكون لأهل الحق ، وما ذلك إلا ليتميز أصحاب الصبر والهمم من غيرهم ممن لا صبر لهم ولا همة ، قال سبحانه: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن

دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات:١٧١ـ ١٧٣] ، وقال تعالى: {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١] ، فجاءت الهجرة لتعلن انتصار الحق على الباطل ، وانتصار الحرية على العبودية ، وانتصار الإيمان على الكفر ، فكانت الهجرة حربًا على الضعف الإنساني في شتَّى صوره وألوانه ، وانتصارًا للحق مهما بطشتْ به قوة الباطل ، وتأسيسًا لأول دولةٍ دعائمُها العدلُ والعلم ، والحريةُ والحضارة ، والإخاءُ والمساواة ، والرحمة والتوادّ ، لتظل الهجرة خير دليل على أن أصحاب الهمم والعزيمة لا تتوقف مسيرتهم.

ولم تكن الهجرة النبوية معجزة ربانية فحسب ، ولا عملاً بشريًّا مجردًا فحسب ، فلقد اجتمع فيها الأمران التأييد الإلهي بعنايته ورعايته ، والتخطيط البشري متمثلاً في الأخذ بالأسباب المعينة على إتمام الأمر بنجاح.

والأخذ بالأسباب دون الاعتماد عليها وحدها عبادة واجبة يتقرب بها العبد إلى الله (تعالى) ، وهي سنة من سنن الله الكونية ، فالدنيا بما أَوْدعه الله فيها من المنافع ، و بما نحدثه فيها من سعي ما هي إلا سبب للنجاح في الآخرة. وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع

الشرائع كلها أسباب موصلة إلى الغاية العظمى وهي رضوانِ الله (عز وجل) ، والدواء ما هو إلا سبب للشفاء ، والمدارسة ما هي إلا سبب للنجاح ، وهكذا جعل الله لكل شيء سببًا.

ولقد طبق نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) سنة الأخذ بالأسباب في الهجرة تطبيقًا عمليًّا في أبهى صوره وأكمله ، حيث خطط للمهمة تخطيطًا جيدًا ، على الرغم من يقينه أن الله كافيه ؛ ليكون ذلك درسًا للأمة أن حسن التخطيط من دعائم التوكل على الله والأخذ بالأسباب ، فاتخذ كل الوسائل التي تعينه على إنجاح الهجرة ، وفي الوقت نفسه كان مع الله (عز وجل) يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح ، وكان كل أمر من أمور الهجرة مدروسًا بعناية فائقة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعنصر التوقيت المناسب للخروج للهجرة كان مختارًا بعناية من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث جاء (صلى الله عليه وسلم) إلى بيت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) في وقت شديد الحر حتى لا يراه أحد ، وأمر (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر (رضي الله عنه) أن يُخرِج مَنْ عنده ، ولما تكلم لم يُبِن إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: "لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إلاَّ يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ، فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا إلاَّ وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ ، فَلَمَّا

دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ: "أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ" ، قَالَ: "يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ ، يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ ، قَالَ: "أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ" ، قَالَ: "الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ" ، قَالَ: "الصُّحْبَةَ" (صحيح البخاري).

فبلغ الاحتياط عند النبي (صلى الله عليه وسلم) مداه ، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم ، والاستعانة بشخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شئون الهجرة ، وتم وضع كل فرد في عمله المناسب ، الذي يحسن القيام به على الوجه الأكمل ، فعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ينام مكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؛ للتمويه على المشركين وخداعهم ، حتى خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) تحرسه عناية الله وهم نائمون ، وأبصار المشركين معلقة بمضجع الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وعبد الله بن أبي بكر (رضي الله عنه) ودوره العظيم في استطلاع الأخبار ورصدها ، وأسماء ذات النطاقين (رضي الله عنها) وحملها الغذاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأبيها الصديق (رضي الله عنه) ، وعامر بن فهيرة راعي الغنم ، وقائد سلاح التمويه والذي قام بدوره بأغنامه يطمس آثار سير النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه الصديق (رضوان الله عليه) ، كيلا يتفرسها القوم ، وعبد الله بن أريقط دليل الهجرة الأمين ، وخبير الصحراء البصير ، يأخذ الركب المبارك من غار ثور إلى يثرب مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إن ما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) من تدبير للأمور على نحو رائع ودقيق ، وبأسلوب حكيم ، ومن وضعه لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب ، واقتصاره على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف ، لهو أكبر دليل على أخذه (صلى الله عليه وسلم) بالأسباب ، ثم اعتماده وثقته في الله (عز وجل) ، يقول أَبِو بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): قُلْتُ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا فِي الْغَارِ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟" (صحيح البخاري). ومن ثمَّ كانت عناية الله تحيط به في كل مكان.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب في حياة المسلم ، وهو من علامات حسن التوكل على الله (عز وجل) ، والرضا بقضائه وقدره ، فلا يعني الرضا بالقضاء والقدر أن نضعف أمام المحن ، أو نستسلم لليأس ، ولكن عين الرضا في التوكل على الله (عز وجل) والأخذ بالأسباب ، فطلب الشفاء والأخذ بأسباب الدواء صورة من صور التوكل على الله ، وفي نفس الوقت لا يرد من قدر الله شيئا ، فعَنْ أَبِى خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا قال: "هي مِنْ قَدَرِ اللَّهِ" (سنن الترمذي).

ولم يرض النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يقف الإنسان عاجزًا لا يدفع عن نفسه ، معتقدًا أن هذا من تمام الرضا والتسليم ، ولكنه (صلى

الله عليه وسلم) ينهى عن العجز والضعف ؛ لما فيهما من مظاهر ذل لا تليق بمسلم أبدًا ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ" ، فَقَالَ: "مَا قُلْتَ؟" قَالَ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، وَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" (السنن الكبرى للنسائي).

ولما جاءه (صلى الله عليه وسلم) رجل يشكو حالة فقره – وكأنه كان معطلاً للأسباب – فأرشده (صلى الله عليه وسلم) عمليًّا إلى ضرورة السعي وضرورة الأخذ بالأسباب ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ فَقال: "أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟" قال: بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قال: "ائْتِنِى بِهِمَا" ، فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ ، وَقال: "مَنْ يَشْتَرِى هَذَيْنِ ؟" قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قَالَ: "مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأنصاري وَقال: "اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِى بِهِ" ، فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: "اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ

وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا" ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِى فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِى غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِى دَمٍ مُوجِعٍ" (سنن أبي داود).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه بالأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي قد يراها البعض دون جدوى أو فائدة ، فعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ (يقصد ناقته) قَالَ: "اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ" (سنن الترمذي).

ولهذا عاب سيدنا عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه) على جماعة من أهل اليمن ، كانوا يحجون بلا زاد فذمهم ؛ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، لَقِيَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ، فَقَالَ: "مَنْ أَنْتُمْ؟" قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، قَالَ: "بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الأَرْضِ ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ". (التوكل على الله لابن أبي الدنيا).

ورأى (رضي الله عنه) قومًا قابعين في رُكن المسجد بعدَ صلاة الجمعة ، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المُتوكِّلون على الله ، فعَلاهم عمر (رضي الله عنه) بدِرّته ونَهَرَهم ، وقال: لا يَقعُدنّ أحدُكم عن طلب الرزق ، ويقول: اللهم ارزقني ، وقد علِمَ أن السماءَ لا تُمطِرُ ذهبًا

ولا فضّة ، وإن الله يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ} [الجمعة :١٠] (إحياء علوم الدين).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

إن الإسلام دين لا يعرف التواكل ، بل يحاربه وينبذه ، ولا يعرف التواني والكسل والخمول ، وإنما هو دين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:٩٧] ، وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" (سنن الترمذي). (تغدو): تذهب أول النهار ، (وتروح): ترجع آخر النهار.

والأخذ بالأسباب أيضًا سنة من سنن الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، فهذا نبي الله موسى (عليه السلام) أمره ربه (سبحانه) أن يضرب البحر بعصاه حيث اتَّبعه فرعون وجنوده يريدون إلحاق الضرر

به وبمن آمن معه ، وما العصا إلا سبب من أسباب النصر والتأييد الإلهي، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ *إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨] ، ولو شاء الله أن يؤيد نبيه موسى (عليه السلام) بالنصر دون أن يأمره بضرب العصا لفعل ، ولكنه يُعلِّم أنبياءه وعباده الصالحين سنة الأخذ بالأسباب ، لتأخذ الأسباب نصيبها من حياة الإنسان.

ومريم بنت عمران (عليها السلام) أمرها ربها تبارك وتعالى وهي في أشد حالات الضعف والوهن وكانت في المخاض ، أن تهز النخلة ؛ لتسقط عليها رطبًا جنيًّا ، قال تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} [مريم: ٢٥] .

ومن المعلوم أنه لو هز النخلة عشرة رجال من جذعها لما تساقطت ثمرة واحدة ، ولكنها سنة الأخذ بالأسباب.

ألـم تر أن الله أوحى لــــمريم وهزي إليك الجذع تسَّاقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل شيء له ســبب

إن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع سنة الأخذ بالأسباب ، وهذه عقيدة يجب أن ترسخ في الأذهان ؛ لنقضي بها على مفهوم السلبية والتواكل ، وليتأكد معنى الإيجابية ، ويتعمق مفهوم التوكل عند العبد وعدم الاغترار بحوله وقوته ، فالأمور مقدرة أزلاً بأسبابها الشرعية والدنيوية بمشيئة الله تعالى وحده.

إن المسلمين اليوم وهم يحتفلون بمقدم عام هجري جديد حري بهم أن يفهموا الإسلام فهمًا صحيحًا بعيدًا عن الأفكار المغلوطة ، فالإسلام أمر أتباعه بالعمل والسعي لعمارة الأرض ، ولم يعرف الكسل أو الضعف ، فهو دين حضارة ، ولن تتأتى الحضارة إلا بالأخذ بأسبابها معتمدين على الله (عز وجل).

* * *

□

الهجرة تحول إيجابي نحو البناء والتعمير وكريم الأخلاق
ولا مجال للهجرة غير الشرعية في الإسلام

الحمد لله ربّ العالمين ، القائل في كتابه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ٢١٨] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن من الأحداث العظيمة الفارقة التي وقعت في تاريخ الإسلام والمسلمين: حادث الهجرة ، الذي ظل وسيظل محفورًا في أعماق التاريخ يؤكد على اقتران الإيمان بالعمل ، وعلى أهمية الأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله (عز وجل).

لقد كان للهجرة النبوية الشريفة دور كبير وأثر بارز في تغيير مسار الدعوة الإسلامية وانتشارها ؛ إذ بالهجرة تحقق موطن حقيقي للإسلام ينطلق منه إلى شتى بقاع الأرض ، يحمل راية التوحيد والأمن والأمان والسعادة للبشرية كلها ، فلم تكن الهجرة حدثًا عابرًا في تاريخ الدعوة الإسلامية ، أو حتى في تاريخ البشرية كلها ، ولم تكن حدثًا شخصيًّا يرتبط بحياة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقط ؛ بل كانت الهجرة حدًّا فاصلاً بين عهد الضعف والانكسار ، وعهد العزة والكرامة والانتصار.

إننا اليوم في حاجة أن نأخذ من ماضينا لحاضرنا ، ونعتبر بمرور الأيام والأحداث ، ونتدبر أحداث الهجرة النبوية ونتائجها ، ونستلهم منها الدروس والعبر التي أكدت على انتظام سنن الله الكونية في انتصار الحق على الباطل ، والبناء على الهدم ، وأسست لبناء دولة الإسلام على العدل والعلم والعمل ، والحرية والإخاء والمساواة ، ورعاية الحقوق والواجبات والتعايش السلمي بين البشر جميعًا على اختلاف أعراقهم وأديانهم ؛ مما ينبغي أن نأخذ منه العبرة والقوة في تعايشنا السلمي والتحام نسيجنا الوطني دون إقصاء أو تمييز في الحقوق والواجبات على أساس الدين أو اللون أو العرق ، غير أن الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان انتهت بعد فتح مكة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لا هِجْرَةَ بعدَ الفَتْحِ ؛ ولكنْ جِهاد ونِيَّة" (متفق عليه) ، ولما أسلم صفوان بن أُمَيَّة جاء مهاجرًا إلى المدينة ، فقال له النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا وَهْبٍ؟" ، قَالَ: قِيلَ: إِنَّهُ لاَ دِينَ لِمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ ، فَقَالَ النبي (صلى الله عليه وسلم): "ارْجِعْ أَبَا وَهْبٍ إِلَى أَبَاطِحِ مَكَّةَ... فَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ" (السنن الكبرى للبيهقي).

إننا اليوم في أمسّ الحاجة إلى هجرة حقيقية إلى الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) دون تركٍ للأوطان ؛ بل بالحفاظ على الأوطان وفدائها بالنفس والنفيس ، نحتاج إلى هجرة الذنوب والمعاصي والمنكرات خوفا من الله (عز وجل) ، وحياء منه ، يقول نبينا (صلى

الله عليه وسلم): "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ" (متفق عليه) ، وسئل النبي (صلى الله عليه وسلم): أي الأعمال أفضل؟ قال: "طُولُ الْقِيَامِ" ، قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: "جُهْدُ الْمُقِلِّ". قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: "مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ.." (سنن أبي داود) ، وسألت أُمُّ سُلَيْمٍ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْصِنِي. قَالَ: "اهْجُرِي الْمَعَاصِي ، فَإِنَّهَا أَفْضَلُ الْهِجْرَةِ ، وحافِظِي عَلَى الْفَرَائِضِ ، فَإِنَّهَا أَفْضَلُ الْجِهَادِ ، وَأَكْثِرِي ذِكْرَ اللَّهِ ، فَإِنَّكِ لاَ تَأْتِينَ اللَّهَ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ" (المعجم الكبير للطبراني).

كما أننا في حاجة إلى أن نهجر الغش ، والاحتكار ، والكذب وأن نهجر الفساد ، والهدم والتخريب ، إلى الأمانة والصدق في سائر المعاملات ، وإلى التكافل والتراحم ، فقد نهانا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الغش بكل أنواعه ، كما نهانا عن الاحتكار أو أن نشق على الناس في أي من أمور حياتهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَحْتَكِرُ إِلاَ خَاطِئٌ" (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "اللهُمَّ ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ" (صحيح مسلم).

كما أننا في حاجة إلى هجرة البطالة والكسل بكل أنواعهما وأسبابهما ، إلى العمل والإنتاج ، والجد والاجتهاد ، وأن نغزو الصحراء لنعمرها ، وأن نستثمر الطاقات ، ونقتحم العقبات والمصاعب ، فقد بيَّن

القرآن الكريم أهمية العمل في الحياة تحقيقًا للاستقرار ، فقال الحق سبحانه وتعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة:١٠٥] .

وأعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من قدر العامل المنتج فقال: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" (صحيح البخاري).

وقوله (صلى الله عليه وسلم): "لأنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا ، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ" (صحيح البخاري) ، وبيّن النبي (صلى الله عليه وسلم) ثمرة العامل المجد في عمله بقوله: "مَنْ أَمْسَى كالاًّ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ" (المعجم الأوسط).

كما أننا في حاجة إلى هجرة توقظ الضمائر ، وتحيي القلوب ، هجرة من سيئ الأخلاق والعادات إلى كريمها وصالحها ، ومن آفات اليد واللسان وحمل السلاح وترويع الآمنين ، وظلم النفس والغير ، والاعتداء على المال العام والخاص ، وأكل الأموال بغير حق ، والإفساد في الأرض وغيرها إلى مراقبة الله (عز وجل) في العبادات والمعاملات ، في البيع والشراء ، في القول والعمل ، فمفهوم الهجرة بعد الفتح يعني أن نهجر السوء بكل أشكاله ، وأن نهاجر إلى الله

بقلوبنا وأجسادنا ، وأن لا نسيئ إلى الإسلام بأفعالنا وتصرفاتنا الخاطئة ؛ بل أن يعمل كل منا على أن يكون صورة مشرقة مشرفة للإسلام والمسلمين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وليُّ الصَّالحينَ ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُه ، اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وباركْ عليهِ وعلَى آلِه وصحْبِهِ ومنْ تبعَهُم بإحسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

أكدنا أن الهجرة الحقيقية تعني التحول من المعاصي إلى تقوى الله (عز وجل) ، ومن سيئ الأخلاق إلى كريمها وصالحها ، ومن الإفساد والتخريب إلى البناء والإصلاح والتعمير ، ومن البطالة والكسل إلى الإنتاج والعمل ، غير أن هناك نوعين من الهجرة غير المشروعة وغير الشرعية ، وكلاهما ذهاب إلى الهلكة ، أما الأولى: فهي الذهاب إلى الجماعات الإرهابية الضالة المضلة تحت وَهْمِ الجهاد الكاذب ، وهذه الجماعات لا علاقة لها لا بالجهاد ، ولا بالهجرة ، ولا بالإسلام على الإطلاق ؛ بل كل ذلك منهم براء.

أما النوع الثاني الذي يؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة: فهو خرق القوانين والتشريعات المنظمة لعلاقات الدول ، حيث يعمد بعض

الناس إلى الهجرة والتسلل عبر البحار والمحيطات والصحراء والجبال ، مع ما في ذلك من انتهاك للقوانين التي تنظم التعامل والعلاقات بين الدول ، وتحافظ على الحقوق والواجبات ، كما أن هذه الهجرة فيها إهلاك للنفس وربما قتلها ، والله (عز وجل) حرم ذلك بقوله تعالى: {وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}. [البقرة: ١٩٥].

فالإسلام دعانا إلى الحياة الكريمة ، ونهانا عن الحياة الذليلة ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ" ، قالوا: وكيف يذلّ نفسه؟ قال: "يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيقُ" (سنن الترمذي) ، ذلك أن المهاجرين غير الشرعيين يعرضون أنفسهم لأمرين: الأول: هو الهلاك ، والثاني: هو المهانة إن نجوا من الهلاك ، وأشد منهم جرمًا هؤلاء المتاجرون بمعاناتهم في عملية أشبه ما تكون بتجارة البشر ؛ مما يتطلب جهودًا وطنية ودولية للعمل معًا على إزالة الأسباب المؤدية إلى هذه الهجرة ، من خلال العمل على توفير فرص العمل والحياة الكريمة المستقرة للناس في أوطانهم ، والضرب بيد من حديد على يد كل من يُعرِّض حياة الناس للخطر أو يتاجر بمعاناتهم وآمالهم وأمانيهم ، ويجب أن نعمل جميعًا على تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى شبابنا عن الهجرة ، وأن نؤكد لهم أن هذه الهجرة التي يمكن أن تؤدي إلى الهلكة ليست من الإسلام في شيء ، وإن أرادوا هجرة حقيقية فلتكن الهجرة إلى العمل الجاد بالطرق المشروعة ، إلى عمارة الصحراء والمناطق النائية لاستخراج كنوزها وإعمارها ، فمصر

في حاجة إلى عقول أبنائها ، وسواعدهم ، وجهدهم وخبراتهم للبناء ، وبما يحقق لهم ولذويهم الحياة الكريمة ، مع التأكيد على أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يعني أبدًا إلقاء النفس إلى التهلكة.

* * *

□

محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة فلنحمل رحمته للعالمين

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

وبعد:

فلقد خلق الله الخلقَ واصطفى منهم الرسل والأنبياء ، واصطفى من الأنبياء والرسل الخمسة أولي العزم (نوحًا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدًا ، عليهم الصلاة والسلام) ، واصطفى منهم محمدًا (صلى الله عليه وسلم) فشرح له صدره ، وأعلى شأنه ، ورفع ذكره ، وجمع له مكارم الأخلاق والآداب ، فقال سبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

وإنَّ من عظيم الأخلاق التي تحلَّى بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خُلُقَ الرحمة ، فظهرت آثارها علي البشرية كلها ؛ لأنها رحمة ربانية ، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩] ، وقد كانت الرحمة التي أودعها الله تعالى قلب رسوله (صلى الله عليه وسلم) رحمة عامة وشاملة ، مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}

[الأنبياء: ١٠٧] ، لم يقل رب العزة رحمة للمؤمنين ولا للمسلمين ، وإنما قال: (رحمة للعالمين) ، وقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالبشرية حدًّا يفوق كل تصورات العقول ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، شهدت له بذلك أم المؤمنين خديجةُ (رضي الله عنها) قائلة: "كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقّ..." (متفق عليه) ، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي التَّوْرَاةِ ، قَالَ: فَقَالَ: "أَجَلْ وَاللَّهِ ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ ، وَلاَ صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ ، وَيَفْتَحُوا بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا" (صحيح البخاري) ؛ لذا تنوعت مظاهر الرحمة وتعددت في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ذلك:

رحمته (صلى الله عليه وسلم) بغير المسلمين ، **وشفقته عليهم** ، **ورغبته في هدايتهم** ، ولا أدل على ذلك مما حدث يوم الطائف ، والذي كان من أشد الأيام صعوبة على النبي (صلى الله عليه وسلم) ،

فقد كذبه أهل الطائف إلى الحد الذي حدا بأمين وحي السماء جبريل (عليه السلام) أن ينزل بأمر من ربه (سبحانه وتعالى) ومعه ملك الجبال مُستأمرًا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أن يُوقع بهم العذاب ، فيجيب الرحمة المهداة (صلى الله عليه وسلم) قائلاً: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" (متفق عليه) ، ولما قيل له (صلى الله عليه وسلم): ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قال: "إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً" (صحيح مسلم).

رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالجاهلين والعصاة من أمته:

فكان يأخذ بأيديهم ويبين لهم سوء فعلهم برفق ولين ، وحكمة وموعظة لا تقلل من شأنهم أو تَنْتَقِصُ من أقدارهم ، فقد صحّ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "دَعُوهُ ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ" (صحيح البخاري) ، وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، قال: بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمَّاهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ

تَعْلِيمًا مِنْهُ ، فوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي ، وَلاَ شَتَمَنِي ، قال: "إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ" (صحيح مسلم).

وبلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) مداها مع العصاة حين جيء إليه برجلٍ شرَّابٍ للخمر ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللهُمَّ الْعَنْهُ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تَلْعَنُوهُ ، فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلاَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (صحيح البخاري).

إنها رحمةٌ ألّفت حوله (صلى الله عليه وسلم) القلوب ، وأذابت ما فيها من ضغائن ، لقد لامست رحمته (صلى الله عليه وسلم) أوتار القلوب فانقادت له ، وصدق الله العظيم إذ يقول: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩].

رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالأطفال: لقد اتسعت رحمته (صلى الله عليه وسلم) لتشمل الأطفال ؛ إذ يقول أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى ، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا" (صحيح البخاري) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يسلم على الصبيان ، ويمسح على وجوههم. عَنْ أَنَسِ بْنِ

مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ" ، وَقَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَفْعَلُهُ" (متفق عليه).

"وكانَ (صلى الله عليه وسلم) يصَلي وهو حاملٌ أُمامةَ بنتَ زينبَ بِنْتِ رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) على عاتقِه ، فإذا سجدَ وضَعَها ، وإذا قامَ حملَها" (متفق عليه) ، وما أروع ما قاله أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه): مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَرْحَمُ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُهُ مُسْتَرْضِعًا فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ، فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا، فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ وَيَرْجِعُ، قَالَ عَمْرٌو: فَلَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ ابْنِي إِبْرَاهِيمَ كَانَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ ظِئْرَيْنِ تُكْمِلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ" (صحيح ابن حبان).

رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة والضعيف: فقد أخذت المرأة حظها من رحمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فكثيرًا ما كان يوصي بحسن معاملتها ، والرفق بها ، فالمرأة في شريعته نسمة تُرحم ، وعرضٌ يُصان ، وكرامة تحفظ ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا" (متفق عليه) ، بل كان يشفق على المرأة حين يسرع الحادي في قيادة الإبل التي تركبها النساء ، فيقول له: "يَا أَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ"(متفق عليه) ، وبلغ من رحمته (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يتجوز في صلاته إذا سمع بكاء الصبي رحمةً

بأمه ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "إِنِّي لاَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا ، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ" (صحيح البخاري) ، وذلك على الرغم من أن قرة عينه (صلى الله عليه وسلم) في الصلاة ، وهذا من كمال شفقته ورحمته (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة.

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في رحمته باليتيم ، والمسكين ، والأرملة ، حين جاءه (صلى الله عليه وسلم) رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟" فَقَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: "ارْحَمِ الْيَتِيمَ ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ" (حلية الأولياء).

وقال (صلى الله عليه وسلم): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ" ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ: "وَكَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ ، وَكَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرُ" (متفق عليه).

هذه الصور العظيمة للرحمة التي أسكنها الله (عز وجل) قلب نبيه (صلى الله عليه وسلم) أكبر دليل على سماحة الإسلام ، ورحمته ويسره ، فشريعة الإسلام هي شريعة السلام ، والرحمة ، واليسر بكل معانيها ، فلْنتراحم فيما بيننا ، ولنرحم من في الأرض ليرحمنا من في السماء ، فقد قال: (صلى الله عليه وسلم): "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ

الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ" (سنن أبي داود).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) للإنسانية على مر التاريخ أعظم الأمثلة في الرحمة بحيث استحق بها أن يكون كما قال الله عنه: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: ٦] ، وأكد (صلى الله عليه وسلم) هذا المعنى تصريحًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلاَ وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}" (صحيح البخاري).

فكان (صلى الله عليه وسلم) ربما ترك عملاً مُعَيَنًا رفقًا ورحمةً بأمته خشية أن يُفرض عليهم ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: "إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهْوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ..." (متفق عليه) ، وقد امتدت

تلك الرحمة لتشمل أمته يوم القيامة ، إذ يقول (صلى الله عليه وسلم): "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (صحيح البخاري).

ولم تقف مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) عند حدود البشر فحسب ، بل اتسعت لتشمل الطير والحيوان والجماد ، فمن رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالطير ، قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): كنَّا مع رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم) في سَفَرٍ ، فانطلقَ لِحاجَتِه ، فرأينا حُمَّرَةً معها فَرْخَانِ ، فأخذنا فَرْخَيْهَا ، فجاءتِ الحُمَّرَةُ ، فجعلت تُعَرِّشُ ، فجاء النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، فقال: "مَنْ فَجَعَ هذهِ بولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها" (سنن أبي داود).

وعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل حائطًا لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) حَنّ وذرفت عيناه ، فأتاه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ذفراه فسكت ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟" ، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله ، فقال له: "أَفَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إلي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ" (سنن أبي داود).

ومن مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالجماد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب الناس على جذع نخلٍ ، فلما كثر الناس

اتخذ منبرًا ، فحن الجذع لفراق رسول الله ، فَأَتَاهُ (صلى الله عليه وسلم) فَاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ ، فَقَالَ: "لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (مسند أحمد).

ولله درُّ الحسن البصري حين قال: "يا معشر المسلمين ، الخشبةُ تَحِنُّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شوقًا إلى لقائه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه؟" (صحيح ابن حبان).

ما أحوجنا إلى أن نقتدي بأخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سلوكنا ، وأخلاقنا ، ومعاملاتنا ، فنتحلى بالرحمة والرأفة واللين والسماحة ، وأن نعامل الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم) ، نشرًا لرسالته ، وبيانًا لهديه وسنته ، فتتحول الرحمة إلى سلوك عملي في حياتنا ، ونحملها إلى البشرية كلها كما حملها أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس وساقوها إليهم سوقًا جميلاً ، فكان ذلك سببًا في إجلال الناس واحترامهم للإسلام كدين من جهة ، وكأسلوب راق للتعامل الإنساني من جهة أخرى.

* * *

□

النبي (صلى الله عليه وسلم)
من الميلاد إلى البعثة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

ففي مثل هذه الأيام المباركة من كل عام ، وفي شهر ربيع الأول يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ذكرى ميلاد الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الذي شهد له الأنبياء برسالته قبل مولده ، وأقروا له بنبوته قبل بعثته ، ثم توّج الله تعالى شهادة أنبيائه ورسله بشهادته ، فقال سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١].

ولا عجب في ذلك ، فقد كان ميلاده (صلى الله عليه وسلم) فاصلاً بين عهدين ، عهد الشرك وعهد التوحيد ، عهد الفوضى وعهد النظام ، عهد الظلم وعهد العدل ، كان العالم قبل مولده (صلى الله عليه وسلم) يعيش حالة من الفوضى والاضطراب ، ضلَّ فيها طريق الهدى

والرشاد ، وانحرف فيها عن الفطرة الإلهية والمنهج الربَّاني ، كانت البشرية كلها غارقة في جاهلية عمياء يعلوها الشرك وفوضى الأخلاق ، لا سلطان يحكمها ، ولا قانون يجمعها ، فقد كانت الأموال منهوبة ، والدماء مسفوكة ، والحروب متواصلة ، كان العالم يتخبط في ظلام دامس حتى وصل الأمر إلى فقدان العواطف الإنسانية ، بل إلى حد فقدان العواطف الأبوية بوأد البنات خشية الفقر والعار ، قال تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل:٥٨ ، ٥٩].

لهذا اقتضت إرادة الله (سبحانه وتعالى) أن ينقذ البشرية من هذا الضلال وهذا الظلم ، بأن يرسل إليهم هاديًا ومبشرًا ونذيرًا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والفلاح ، وهو سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فكان الميلاد الأعظم منَّةً من الله تعالى على عباده ؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الظلم إلى العدل ، يقول سبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤] ، ويقول (عَزَّ من قائل): {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢].

وقد كان ميلاده (صلى الله عليه وسلم) استجابة لدعوة الخليل إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلام) حيث دعا ربه قائلاً: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩] ، وتصديقًا لبشارة عيسى (عَلَيْهِ السَّلام) حيث بشر به في الإنجيل ، ويحكي لنا القرآن الكريم هذه البشارة فيقول: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف: ٦] ، ولذلك لما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) فقيل له يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ قال: "أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى" (المستدرك للحاكم).

والمتأمل في فترة ما بين المولد إلى البعثة للنبي (صلى الله عليه وسلم) والتي تقدر بأربعين عامًا من عمره (صلى الله عليه وسلم) يجد أنه ظهرت فيها العناية الربانية في إعداد سيد البرية (صلى الله عليه وسلم) ، وتجلت فيها الصفات الحميدة التي تنبئ عن كريم أصله وشريف نسبه.

فقد حبا الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) بكثير من المناقب والتكريم والتعظيم ، حيث أكرمه ربه في ولادته ، فوُلدَ في أشرف بيت من بيوت العرب ، وطهر الله أصوله فلم يختلط نسبه بشيءٍ من سفاح الجاهليّة ، فكان من أطهر أنسابهم وأعرق أصولهم ، يقول (صلى الله

عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" (صحيح مسلم).

كذلك أكرمه ربه (عز وجل) بحسن نشأته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، يقول الحق سبحانه: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى* أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١ – ١١] ، فقد نشأ (صلى الله عليه وسلم) يتيمًا ، مات أبوه وهو في بطن أمه آمنة بنت وهب ، ولما بلغ من العمر ست سنوات ماتت أمه وعاش في كفالة جده عبد المطلب الذي أعطاه رعاية كبيرة ، ثم انتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب بعد موت جده ، لكنه (صلى الله عليه وسلم) كان في رعاية الله وعنايته ، محفوظًا بحفظه (عز وجل) .

ورغم نشأته (صلى الله عليه وسلم) في أجواء الجاهلية ، إلا أنه تميّز في صغره عن غيره من البشر ، فلم يتأثر بأيٍّ من عادات الجاهلية المنحرفة ، وكان ينأى بنفسه عن أخلاق الجاهلية وأفعالهم ، فلم يسجد لصنم ولم يشرب خمرًا ، وقد حفظه الله في صغره من أن يقع فيما يقع فيه بعض الشباب ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلاَ مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ ،

كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا ، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ ، قَالَ: نَعَمْ ، فَخَرَجْتُ ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً ، وَصَوْتَ دُفُوفٍ ، وَمَزَامِيرَ ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلاَنٌ تَزَوَّجَ فُلاَنَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنِي إِلاَ مَسُّ الشَّمْسِ ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي ، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ ، فَخَرَجْتُ ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقِيلَ لِي مِثْلُ مَا قِيلَ لِي ، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلاَ مَسُّ الشَّمْسِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي ، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا ، قال رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): فَوَ اللَّهِ ، مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِنُبُوَّتِهِ" (صحيح ابن حبان).

ولما بلغ (صلى الله عليه وسلم) مبلغ الشباب أكرمه ربه (سبحانه وتعالى) بحسن خلقه ، واستقامة شبابه ، وكمال عقله ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يتحلى بالأخلاق الكريمة ، والصفات النبيلة ، وكان من عادته أن يهتم بمن حوله ، فاشتهر عنه مساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيوف ، والإحسان إلى الجيران ، والوفاء بالعهد ، وعفة اللسان ، وكان قمة في الصدق والأمانة حتى عرف بين قومه بـ"الصادق الأمين"(السيرة النبوية لابن هشام).

وقد أَلِفَ (صلى الله عليه وسلم) العمل والكفاح منذ صغره فكان يعمل في رعي الأغنام ، ثم اتجه للعمل في التجارة ، ولما رأت خديجة (رضي الله عنها) أن تجارتها قد ربحت معه أكثر مما كانت تربح ، وذكر لها ميسرة ما رأى من حاله (صلى الله عليه وسلم) في سفره ومعاملته وجميل خصاله ، وقع في قلبها حبه ، ورغبت في الزواج منه فتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وقد امتاز (صلى الله عليه وسلم) في شبابه بالمشاركات الإيجابية الفعالة التي كان لها أكبر الأثر في هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، حتى جاء التكريم الأعظم ببعثته (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، وهاديًا للحائرين.

ومن أهم هذه المشاركات الإيجابية وأكثرها تأثيرًا في مكة: شهوده (صلى الله عليه وسلم) حلف الفضول ، وقد شارك فيه وهو في سن العشرين ، وكان أكرم حلف وأفضله للعرب في الجاهلية ، وسببه أن رجلاً من قبيلة (زبيد) باليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي وأبى أن يعطيه حقه ، فاستعدى عليه الزّبيدي أشراف قريش فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم ، فلما رأى الزبيدي الشر وقف عند الكعبة واستغاث بأهل المروءة ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، فتعاقدوا وتحالفوا بالله في شهر حرام ، وهو ذو القعدة ليكوننّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يرد إليه حقه ، فسمَّت قريش

هذا الحلف (حلف الفضول) وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

كان حلف الفضول لنصرة المظلوم ، والدفاع عن الحق ، ويعد من مفاخر العرب قبل الإسلام ، ولقد بدت علامات الرضا والفخر بهذا الحلف في كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول: "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمُرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لاَجَبْتُ" (السنن الكبرى للبيهقي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

من الأحداث العظيمة التي شارك فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة وهو في سن الخامسة والثلاثين: إعادة بناء الكعبة المشرفة ، حين اختلف أهل مكة فيمن ينال شرف وضع الحجر الأسود في موضعه ، وكادوا يقتتلون لولا أن الله (عز وجل) هداهم أن يحكم بينهم أول من يدخل عليهم الحرم ، فإذا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدخل عليهم ، ونظرًا لمعرفتهم برجحان عقله ،

وفصاحة لسانه ، وحلاوة منطقه وحكمته البالغة في تقدير الأمور ، قالوا: هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، وما أن انتهى إليهم حتى أخبروه الخبر ، فقال: (هلمّ إلى ثوبًا) ، فأتوه به ، فوضع الحجر في وسطه ثم قال: "لِتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ الثَّوْبِ ثُمّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا" ، ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه أخذه (صلى الله عليه وسلم) بيده الشريفة ووضعه في مكانه (السيرة النبوية لابن هشام).

وقد نتج عن مشاركته (صلى الله عليه وسلم) في هذا الحدث الجليل أمران: الأول: قطع النزاع وإنهاء الشقاق والخلاف بين أهل مكة على يديه (صلى الله عليه وسلم). والثاني: حصـوله (صلى الله عليه وسلم) على شـرف وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين في مكانه من البيت.

وتطوى الأربعون سنة من حياته (صلى الله عليه وسلم) بتأكيد نبوته وصدق ما جاء به ، لما عرف به من حسن الخلق حتى قالت خديجة (رضي الله عنها): "كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (مُتفَقٌ عَليْه).

وكان مسك الختام ببعثة خير الأنام (صلى الله عليه وسلم) بالحق وإلى الحق ، ويبدأ عهد جديد للإنسانية بعد أن مرَّ عليها حين من الدهر كان الجهل شعارها ، والظلم قانونها ، والشرك دينها ، وكانت البداية في جبل النور في غار حراء: {اقْرَأْ باسم رَبك الَّذِي خلق *

خلق الإِنْسَان من علق * اقْرَأ وَرَبك الأكرم * الَّذِي علم بالقلم} [العلق: ١ – ٤].

وبهذه الآيات التي ابتدأ بها الوحي الشريف على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ترتسم معالم الإنسانية الراقية والحياة الفاضلة في ظلال الوحي الشريف.

□* * *

من الجوانب الإنسانية
في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإذا كانت بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما هي رحمة للعالمين ولتتمم مكارم الأخلاق نجدها مفعمة بالحس الإنساني ، والجوانب الإنسانية ، سواء في مقاصدها التشريعية أم في حياة نبينا (صلى الله عليه وسلم) الذي حباه ربه (عز وجل) بالفضائل الإنسانية ، وجمَّله بمكارم الأخلاق حيث قال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤].

لقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أحسن الناس خلقًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأكرمهم عشرةً ، فهو الزوج نعم الزوج ، تحققت فيه كل معاني المودة والرحمة والسكن ، فهذه زوجه خديجة (رضي الله عنها) تصفه فتقول: "إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (مُتفَقٌ عَليْه) ، وها هو

(صلى الله عليه وسلم) يحفظ لها عهدها بعد وفاتها ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) امْرَأَةٌ ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِطَعَامٍ ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ وَيَضَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ تَغْمُرْ يَدَيْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ هَذِهِ كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ ، أَوْ حفظَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ" (المعجم الكبير للطبراني).

إنه الزوج الوفيُّ المحبُّ لزوجه في الحياة وبعد الممات ، تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها): "مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ ، وَمَا رَأَيْتُهَا ، وَلكِنْ كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يُكْثِر ذِكْرَهَا ، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ ؛ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَدِيجَةُ ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ" (صحيح البخاري). وفي رواية قال (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ (عز وجل) خَيْرًا مِنْهَا ، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ (عز وجل) وَلَدَهَا" (مسند أحمد).

وكما كان (صلى الله عليه وسلم) نعم الزوج كان نعم الأب ونعم الجد ونعم الصديق ، أما عن أبوته (صلى الله عليه وسلم) فكان الأب العطوف الذي يحمل بين جنباته كل معاني العطف والحنان والشفقة

والرحمة ، وها هو تدمع عيناه عند وفاة ابنه إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلام) لما دخل عليه وهو يجود بنفسه ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ – رضى الله عنه –: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ" (صحيح البخاري).

ولم يفرِّق (صلى الله عليه وسلم) في المعاملة بين أبنائه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يعطف على بناته ويكرمهن أعظم إكرام ، وكان إذا دخلت عليه ابنته فاطمة (رضي الله عنها) يقوم لها ويقبلها بين عينيها ، ويجلسها عن يمينه ، وربما بسط لها ثوبه ، بل ويخصها ببعض أسراره تكريمًا لها وإعلانًا لمحبته لها .

وإذا كان عطفه على بناته قد بلغ مبلغًا عظيمًا فقد كان (صلى الله عليه وسلم) نعم الجد مع أحفاده ، فإنه (صلى الله عليه وسلم) لما سجد فِي إِحْدَى صَلواته يومًا وأطال السجود ، قال الناس: يا رسول الله ، إنك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحَى إليك ، قال: "كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ، وَلَكِنِ ابْنِي (الْحَسَن) ارْتَحَلَنِي – ركب على ظهري – فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ" (سنن النسائي) ، وعندما كان (صلى الله عليه وسلم) يخطب على المنبر (إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنَ الْمِنْبَرِ

فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ: "صَدَقَ اللَّهُ: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥] نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا" (سنن الترمذي).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا ، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا) (مُتفَقٌ عَليْه).

وأما عن صحبته (صلى الله عليه وسلم) فكانت نعم الصحبة ، يذكر لأهل الفضل من أصحابه فضلهم ، وكان يقول: "إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ" (مُتفَقٌ عَليْه).

بل إنه (صلى الله عليه وسلم) كان يتألم لألم أصحابه ، فلمَّا "اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ ، فَقَالَ: (قَدْ قَضَى) قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَبَكَى النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَلَمَّا رَأَى القَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) بَكَوْا، فَقَالَ: "أَلاَ تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ ، وَلاَ بِحُزْنِ القَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا – وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ – أَوْ يَرْحَمُ.." (مُتفَقٌ عَليْه).

ومع كل ذلك نرى فيه الإنسان الذي يخدم نفسه ويكون في مهنة أهله ، فيحلب شاته ، ويخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، فلما سُئِلَت السيدة عَائِشَة (رضي الله عنها) هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: "نَعَمْ ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ" (صحيح ابن حبان) ، وفي رواية: "يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ" (صحيح ابن حبان) ، وجاء في رواية البخاري: عَنِ الأَسْوَدِ ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: "كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ – فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ" (صحيح البخاري).

ومن أعظم الجوانب الإنسانية في حياته (صلى الله عليه وسلم) رحمته بجميع أمته ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وأخبر (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الرحمة فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ" (المستدرك للحاكم).

وبهذه الرحمة والرأفة نجح (صلى الله عليه وسلم) في تأليف قلوب مَنْ حَوْلَه ، وصدق الله حيث قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩] ، فقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) بأمته حدًّا يفوق كل تصورات

العقول ، حتى شملت كل المخلوقات ، فالطفل له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم) ، فحين قَبَّلَ (صلى الله عليه وسلم) الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ثُمَّ قال: "مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ" (مُتفَقٌ عَليْه).

وكان لا يلبث إذا سمع بكاء الطفل الرضيع وهو يصلي أن يخفف في صلاته ؛ لما يعلم من قلق أمه عليه ، فينهي صلاته على عجل رحمة بالرضيع ، و لئلا تنشغل أمه أو تحزن لبكائه ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ" (مُتفَقٌ عَليْه).

وكذلك كان للخادم نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم) ، فها هو أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يقول: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) عَشْرَ سِنِينَ ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ قَطُّ ، وَمَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلاَ كُنْتَ فَعَلْتَهُ؟ وَلاَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟" (متفق عليه).

حتى الحيوان كان له أيضًا نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم) ، فحين دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ ، فَقَالَ: "مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟" ، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ: "أَفَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ ، فَإِنَّهُ شَكَا إلى أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ" (سنن أبي داود)، ومن الجوانب الإنسانية في حياته (صلى الله عليه وسلم): عنايته بالضعفاء والأيتام والأرامل والفقراء والمساكين ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): "ابْغُونِي فِي الضُّعَفَاءِ ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ" (سنن أبي داود) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ" وأشار بالسبابة والوسطى (صحيح مسلم). وقال (صلى الله عليه وسلم): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ" (صحيح البخاري) ، لقد كان (صلى الله عليه وسلم) يسعى في قضاء حوائج هؤلاء الضعفاء ، ويزور مريضهم ويخفف من آلامهم ، ويطعم جائعهم ، ويقضي عن غارمهم ، يفعل هذا معهم والسعادة تَغْمُر قلبه ، والرحمة تملأ حنايا صدْره ، فكَانَ (صلى الله عليه وسلم) "لا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ ، وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ" (صحيح ابن حبان).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

من الجوانب الإنسانية في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم): وفاؤه بالعهد: وهذا الخلق العظيم من أخص خصائصه (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة وبعدها ، حتى وهو في ساحة القتال لم يكن (صلى الله عليه وسلم) يغدر بأعدائه ، بل يفي لهم بعهدهم .

عن حُذَيْفَة بْن الْيَمَانِ (رضي الله عنه) قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّى خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي- حُسَيْلٌ- قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ: "انْصَرِفَا، نَفِى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ" (صحيح مسلم).

وكان من وصاياه (صلى الله عليه وسلم) في المعارك لأصحابه خاصة ، وللمقاتلين من أمته عامة: "انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا ، وَلاَ طِفْلاً ، وَلاَ صَغِيرًا ، وَلاَ امْرَأَةً ، وَلاَ تَغُلُّوا ، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سنن أبي داود).

ومن الجوانب الإنسانية في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم): تعامله مع المخطئ برفق ولين ، دون تعنيف أو تسفيه أو تجريح ، فهذا الأعرابي الذي بال في مسجده (صلى الله عليه وسلم) وثار الناس به

وهموا أن يفتكوا به لهذا الجُرم الذي فعله ، ماذا فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) معه؟! قال: "دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ – أَوْ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ – فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ" (صحيح البخاري).

إن إنسانية النبي (صلى الله عليه وسلم) راعت الحقوق ووفَّت بالعهود ، وحافظت على الواجبات مع الجميع ، مع آل بيته (صلى الله عليه وسلم) ، ومع أصحابه ، ومع جيرانه ، ومع أعدائه ، كل هؤلاء كان لهم نصيب من إنسانيته (صلى الله عليه وسلم) التي تفيض رقة وكرمًا وحسن خلق .

فما أحوجنا إلى التأسي بسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وخاصة في الجوانب الإنسانية التي لم تعرف الدنيا لها مثيلاً لتستقيم حياتنا .

* * *

دروس من الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فمن الألم يأتي الأمل ، وعقب المحنة تأتي المنحة ، فبعد العام الذي عُرف في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) بعام الحزن ، الذي فقد فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) زوجه الحنون خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) ، وعمه أبا طالب ، ولاقى من الخلق ما لاقى ؛ فكان التكريم من الله تعالى له ولأمته حيث رفعه إلى مكان لم يصل إليه علم الخلائق ، وهذه الرحلة المباركة ستظل مصدرًا يستلهم منه المسلمون الدروس والعبر ، وتذكرهم دائمًا بدورهم تجاه خالقهم وأمتهم ، و تمنحهم من التكريم ما يجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

هذه المعجزة التي وقف أمامها العقل البشري عاجزًا ، ليأتي القرآن الكريم معلنًا أن الأمر يتعلق بقدرة الله تعالى الذي أسرى بعبده ، فيقول الله (عز وجل): {سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء:١] ، ومع دلالة هذه الرحلة العظيمة على التكريم للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأمته فقد كانت الدروس المستفادة منها جليلة القدر وعظيمة النفع:

ومن هذه الدروس العظيمة والمعاني الجليلة: الإيمان بطلاقة القدرة الإلهية ، التي لا تحدها حدود ، والتي أسرت برسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، ثم عرجت به إلى سدرة المنتهى مخترقًا الحجب ، عبر السماوات السبع.

لم تستوعب عقول المشركين طلاقة القدرة الإلهية ، إنهم يكذِّبون النبي (صلى الله عليه وسلم) منكرين أنه استطاع أن يذهب إلى بيت المقدس ، ثم يعود ليصبح بين ظهرانيهم ، ولم يلتفتوا إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يقل لهم: سَرَيْتُ ، وإنما قال: أُسْرِيَ بي ، فنسبوا الفعل إلى قدرة البشر فأنكروه ، ولو ردوه إلى قدرة الله تعالى لوجدوا الأمر يسيرًا ، فإذا كان الإنسان اليوم قد استطاع أن يرتاد الفضاء ، وأن يصل إلى القمر في جزء يسير من الزمن ، وأن يعبر المحيطات ، ويصنع المركبات الفضائية ، أفيعجز مَن خَلق الإنسان أن يُجري هذا الحدث العظيم لأكرم مخلوق (صلى الله عليه وسلم)؟ فعلى قدر قدرة الفاعل يكون الفعل ، كما أن جودة الصنعة تتناسب مع إجادة الصانع ، وفاعل المعجزة هو الله القادر على كل شيء.

ومن دروس الإسراء والمعراج: أن نلزم اللجوء إلى الله تعالى في كل وقت ، لا سيما وقت الشدة ، ففي اللجوء إليه سبحانه يجد العبد نفسه قد تعلق بأسباب القوة والعظمة ، فيرتقي ويرتفع ويسمو فوق كل شدة وكل محنة ، ويخرج من نطاق قدرة البشر ليجد نفسه معانًا بقدرة رب البشر (جل وعلا).

ومن الدروس المستفادة أيضاً من هذه المعجزة العظيمة: أن الإسلام دين الفطرة ، يقول الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله): وفى ليلة الإسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين ، وهي أنه دين الفطرة.

ففي الحديث: "ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ..." (صحيح مسلم).

إن سلامة الفطرة لب الإسلام ، ويستحيل أن تُفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب ، إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قذرًا وسوادًا ، وربما أُخفي هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة ، ويوم تكون العبادات نفسها ستارًا لفطرة فاسدة فإن هذه العبادات الخبيثة ، تعتبر أنزل رتبة من المعاصى الفاجرة.." ، فالإسلام هو الدين الذي يلبي نوازع الفطرة في توازن بين الروح والجسد والمصالح والمفاسد ، والدنيا والآخرة ، كما كان هذا من أهم أسرار سرعة انتشار الإسلام و إقبال الناس عليه على الرغم مما يوضع

أمامه من عوائق وعقبات ، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [الروم :٣٠] ، ومن أهم معالم هذه الفترة سماحة الإسلام والبعد عن كل مظاهر العنف و التشدد ، يقول الحق سبحانه وتعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] ، ويقول الحق سبحانه: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ" (صحيح مسلم).

ومن أهم الدروس المستفادة من هذه المعجزة العظيمة والرحلة الجليلة: أنَّ المحن تتبعها المنح ، وأنَّ وقت اشتداد المحن هو بداية الفرج ، فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعاني من أهل مكة ما يعانيه من الصدِّ والإعراض والإيذاء والتنكيل ، ويخرج لأهل الطائف فيرجع مُطَارَدًا داميَ القدمين ، ثم يدخل مكة مرة أخرى في جوار كافر ، ثم من بين هذه الشدائد والمحن يولد الأمل ، فيستضيفه الله (عز وجل) في الملأ الأعلى ليسمو به عن الأرض وما فيها، ألا فلْنتعلّم كيف نرتقي فوق كل المحن متعلقين فقط بالرجاء في الله العظيم الكريم.

ففي وسط المحن واشتداد الكروب واتساع الخطوب ينبثق فجر الأمل ويحيي نور الحياة أمام كل مبتلٍ صبر على بلائه وتحمل هذه المحن مستعينًا بالله (عز وجل) ، فهو سبحانه كاشف الضر ومفرج

الكروب ، يقول تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢].

ومن دروس الإسراء والمعراج: بيان فضل نبينا (صلى الله عليه وسلم) الذي تجلى في هذا المؤتمر الأُمَميّ العظيم الذي مَثَّلَ فيه كلُ نبي أمتَه ، إنه مؤتمر الأقصى الذي جمع الله تعالى فيه الأنبياء جميعًا ، والعجب العجاب حين تأتي الصلاة فيتدافع الأنبياء أيُّهم يصلي إمامًا ، فيأخذ جبريل (عليه السلام) بيد النبي (صلى الله عليه وسلم) فيقدمه معلنًا إمامة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، لا لأمته فقط ، وإنما للأنبياء والمرسلين أجمعين ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "..فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِى بِالسَّلاَمِ..." (صحيح مسلم).

وكأن الله (عز وجل) بذلك يريد أن يرسل بلاغًا إلى عباده جميعًا أن دين الأنبياء واحد ، فلقد جاءوا جميعا بالتوحيد الخالص ، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥].

فالأنبياء إخوة لعلات ، دينهم واحد كما في الحديث: "الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ" (صحيح البخاري) ، وفي إمامته (صلى الله عليه وسلم) للأنبياء إشارة إلى أنَّ أمر النبوة قد ختم،

وأنَّ هذا النبي الكريم هو النبي الخاتم ، كما جاء في الحديث: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ" (متفق عليه) ، ولأنَّ هذا حدث في المسجد الأقصى مهبط الرسالات ومبعث الأنبياء ، ففي ذلك إشارة من الله (عز وجل) إلى أنه وضع حماية المقدسات في الأرض في يد هذا النبي الكريم وأمته.

ومن الدروس المستفادة من هذه الرحلة العظيمة كذلك: بركة النصح للمسلمين ، فبسبب نصح سيدنا موسى (عليه السلام) لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) خفف الله تعالى عنه وعن أمته الصلاة المفروضة إلى خمس صلوات ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "..فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ خَمْسِينَ صَلاَةً ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ.." (صحيح مسلم).

ألا فلندرك قيمة النصيحة وبركتها ، ولقد لخص لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) الدين كله في النصيحة حيث يقول: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ" قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ" (صحيح مسلم).

ومن أهم ما أثمرته هذه الليلة المباركة: تلك الهدية التي رجع بها النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي الصلاة غرة الطاعات ، ورأس القربات ، وعماد الدين ، وعصام اليقين ، لقد أراد الله تعالى أن تُفرض الصلاة مباشرة دون وساطة جبريل (عليه السلام) أو غيره ؛ لتكون الصلةَ الدائمة بين المسلم وربه.

لقد رجع النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذه الوسيلة التي يرتقي بها المسلم إلى مقابلة الله (عز وجل).

ولأجل أن الصلاة هي الصلة المباشرة بين العبد وربه جعلها الله تعالى عماد الدين ، يقول حجة الإسلام الغزالي (رحمه الله): "وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة ، فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره.." (إحياء علوم الدين) ، وفي فرض الصلاة في هذه الليلة دلالة على عظيم فضل الله تعالى على عباده ، فقد انتهى الأمر بكونها خمسًا في العمل وخمسين في الثواب ، فهل هناك فضل ويسر أعظم من ذلك؟

إن الله (عز وجل) يقول لنبيه (صلى الله عليه وسلم) في السورة نفسها – سورة الإسراء –: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٨ ، ٧٩].

ومن أهم ما يجب أن نتعلمه من هذه الحادثة أيضاً:

الإيمان المطلق بالغيوب التي أخبر عنها القرآن الكريم أو الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، ومنها: الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، وجنة ونار ، وميزان وصراط ، وغير ذلك.

فأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) إنما اكتسب لقب (الصِّدِّيق) من هذا اليوم الذي بدت فيه قوة إيمانه ويقينه بصدق النبي (صلى الله عليه وسلم).

لقد هرع إليه المشركون وليس عندهم أدنى ريب في أن هذا اليوم هو الذي سيشهد نهاية العلاقة بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر حين يبلغه الخبر ، لكنهم فوجئوا بما لم يتوقعوا.

فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: "لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ ، وَسَعَوا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ ؛ إِنِّي لأَصُدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ" (المستدرك للحاكم).

إن الإيمان بالغيب دليل على قوة التصديق وقوة اليقين ، فما في الإيمان بالمُشَاهد فرق بين مصدق وجاحد ، فالإيمان بالغيب هو الذي يفرق بين المؤمن الصادق والكافر الجاحد ، فالكافر لا يؤمن إلا بما يراه أو يدركه بحواسه منتحيًا إلى المادية البحتة ، أما المؤمن فهو يصدق بكل غيب أخبر به القرآن الكريم وبما ثبت في السنة النبوية الشريفة ، وما ذلك إلا لقوة يقينه بصدق النبي (صلى الله عليه وسلم).

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

إن من أهم نتائج رحلة الإسراء والمعراج معرفة مكانة المسجد الأقصى في كيان هذه الأمة ؛ إذ إنه مَسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومعراجه إلى السماوات العلى ، وكان القبلة الأولى التي صلى إليها المسلمون في الفترة المكية ، ولا تشد الرِّحال بعد المسجدين إلا إليه ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى" (متفق عليه) ، وفي

ذلك توجيه للمسلمين إلى أن يعرفوا منزلته ، ويستشعروا مسئوليتهم نحوه.

إن هذا الربط بين المسجدين- المسجد الحرام والمسجد الأقصى- ليشعر الإنسان المسلم بأن لكلا المسجدين قدسيته ، فهذا ابتدأ الإسراء منه ، وهذا انتهى الإسراء إليه ، وكأن هذا يوحي بأن من فرَّط في المسجد الأقصى يوشك أن يفرِّط في المسجد الحرام. إنّ مُعْجزةَ الإسراءِ والمعراجِ بنبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) تجعلُ المسجدَ الأقْصَى أمانَةً في أعْناقِ عُمومِ المسلمينَ ، لا يَحِلُّ لهم التهاوُنُ في حِمايَتِهِ ورِعايَتِهِ وَدفع الأخْطارِ عَنْه.

أما الهدف الأسمى من هذه الرحلة العظيمة فقد أفصحت عنه آيات القرآن الكريم ، فالله تعالى يقول: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١] ، فالهدف: {لنريه من آياتنا} ، وفي حديث القرآن عن المعراج يقول الله تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم: ١٨] ، فالله (عز وجل) أراد أن يتيح لرسوله فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته ، حتى يملأ قلبه ثقة فيه ، واستنادًا إليه ، فيزداد قوة في مواجهة العقبات التي تحول دون تبليغه رسالة الإسلام ، لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يُرِيَ نبيه (صلى الله عليه وسلم) صورًا لثواب الصالحين وعقاب العاصين بطريقة تنبئ عما أعدّه الله تعالى للفريقين ، ومنها هذه الصورة التي تفصح

عن قبح الغيبة وحرمتها وعاقبة أهلها: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ" (سنن أبي داود).

يا له من منظر فظيع ينبغي أن يستوعبه قوم لا عمل لهم إلا الوقوع في أعراض الناس وانتقاصهم وتشويههم لأغراض دنيوية دنيئة ، متناسين أن الله تعالى عظم جُرْمَ الخوضِ في الأعراض ، وجعل حرمة الأعراض كحرمة الكعبة.

ومن المشاهد التي شاهدها النبي (صلى الله عليه وسلم) ما رآه من حال مَنْ يقولون مالا يفعلون ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ؛ أَفَلا يَعْقِلُونَ" (مسند أحمد).

ومسك الختام في هذه الرسالة التي أرسلها خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) لهذه الأمة ، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلاَمَ ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ

التُّرْبَةِ ، عَذْبَةُ الْمَاءِ ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ" (سنن الترمذي).

* * *

الإسراء والمعراج
دروس في الفرج بعد الشدة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعـد:

فقد أكرم الله تعالى نبيه محمدًا (صلى الله عليه وسلم) بآيات عظيمة ومعجزات باهرة تؤكد صدق نبوته (صلى الله عليه وسلم) ، وتكريم الله تعالى له.

ومن هذه الآيات: معجزة الإسراء والمعراج ، فهي رحلة حافلة بالدروس والعبر ، غير أن الدرس الأعظم منها هو: الفرج بعد الشدة ، وأن المحن تتبعها المنح ، فكل محنة وشدة وراءها منحة وعطاء وتكريم من الله (عز وجل).

فبعد المحن والشدائد التي تعرض لها النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة قبيل الإسراء والمعراج ، وبعد عام من الامتحان والابتلاء عُرِف في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) بعام الحزن ، فَقَد فيه

(صلى الله عليه وسلم) زوجَه الحانية خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) التي كانت تخفف عنه (صلى الله عليه وسلم) ما يلاقيه من أهل مكة ، وعمَّه أبا طالب الذي كان يعضده ويقويه ويدفع عنه الأذى.

في هذه المرحلة اشتد الأذى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولاقى من أهل مكة ما لاقى ، مما اضطره (صلى الله عليه وسلم) إلى الخروج إلى الطائف لعلَّه يجد فيهم استجابة لدعوته ، غير أنهم كانوا أكثر غلظة وأشد قسوة عليه من قومه ، فسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدّم من قدميه الشريفتين.

فاتجه (صلى الله عليه وسلم) إلى ربه بدعواته المشهورة "اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُقْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِكَ" (الدعاء للطبراني).

ومن هنا ، ومن قلب المحن كانت المنحة الربانية العظيمة ، فكانت رحلة الإسراء والمعراج ، التي سجلها رب العزة وخلدها بقرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن

عليها ، حيث يقول الحق سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١].

ويقول سبحانه: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوحَى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم:١ – ١٨].

لقد جعل الله (عز وجل) هذه المعجزة تسرية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وتكريمًا له ، وتثبيتًا لقلبه ، ولكي يزداد إيمانًا ويقينًا وثقةً في أن الله (عز وجل) لا يتخلى عن عباده المؤمنين.

حيث أطلعه الله فيها على حقائقَ غيبيةٍ ، وأسرارٍ كونيةٍ ، لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل ؛ لتعلن عن معية الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ونَصرِه له.

وهذا درسٌ عظيمٌ لكل من يتعرض لشدة أو تصيبه محنة أو كرب ، فإذا صبر وتحمل الشدائد ، فلا شك أن الله سيكرمه بالعطاءات الإلهية والمنح الربانية ، وستظل هذه المعجزة يقف أمامها العقل البشري

عاجزًا ؛ لأنها لا تخضع لقوانين طبيعية أو بشرية ، وإنما تتعلق بقوانين إلهية.

أكدت معجزة الإسراء والمعراج أن الإسلام دين الفطرة ، ويتجلى ذلك حين عُرض على النبي (صلى الله عليه وسلم) اللبنُ والخمرُ فاختار اللبنَ ، فبشره الأمين جبريل (عَلَيْهِ السَّلام) بقوله: "هُدِيتَ الفِطْرَةَ ، أَوْ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ".

وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم): "...وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ ، أَحَدُهُمَا لَبَنٌ وَالآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ ، فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ ، فَقِيلَ لِي: هُدِيتَ الفِطْرَةَ ، أَوْ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ" (مُتفَقٌ عَلَيْه).

كما أكدت هذه الرحلة المباركة أن مقامَ العبودية الخالصةِ لله تعالى أسمى المراتب التي يصلُ إليها الإنسان في حياته ، وأنها شرف لا يدانيه شرف ، وصف الله تعالى به نبيه (صلى الله عليه وسلم) في قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: "جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ؟ أَوْ عَبْدًا رَسُولاً؟ فَقَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ ، قَالَ: بَلْ عَبْدًا رَسُولاً" (مسند أحمد).

فكان (صلى الله عليه وسلم) في كل لحظات حياته عبدًا لله ، حتى صار وصف العبودية علمًا عليه (صلى الله عليه وسلم) ، فعندما قالت أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) يَا رَسُولَ اللهِ ، كُلْ مُتَّكِئًا جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ ، فَإِنَّهُ أَهونُ عَلَيْكَ ، قَالَتْ: فَأَصْغَى بِرَأسِهِ حَتَّى كَادَ أَنْ تُصِيبَ جَبْهَتُهُ الأَرْضَ ، ثُمَّ قَالَ: "لا ، بَلْ آكُلُ كَمَا يَأكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ" (مسند أبي يعلى) ، ولله درُّ القائل:

وممـا زادنـي شـرفًا وتيهًـا — وكدت بأخمصي أطأ الـثريـا
دخولي تحت قولك يا عبادي — وأن صيَّـرت أحمـد لي نبيًّـا

ومن الدروس المستفادة من ذكرى الإسراء والمعراج: ما وضحته هذه الرحلة من أن مفهوم الصداقة ليست كلمة تقال ، ولا شعارًا يرفع ، وإنما هي مبادئ ومواقف.

وقد ضرب سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) أروع الأمثلة في الصداقة الحقة في أسمى معانيها ، والتي تتجلى أوضح ما تتجلى عند الشدائد.

فعندما عاد النبي (صلى الله عليه وسلم) من رحلته ، أخبر أهل مكة أنه ذهب إلى بيت المقدس ثم عاد في ليلته ، فطاروا بها إلى الصديق ليفصموا عرى الصداقة بينه وبين المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، فماذا قال؟ لقد تجلّت صداقته الحقة في هذا الموقف،كما تجلى إيمانه الذي لا يهتز ، قَال المشركون: "هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ

يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ ، إِنِّي لأَصُدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق" (المستدرك للحاكم).

فإذا كان للصداقة قدرها ومنزلتها في علاقة الناس بعضهم ببعض ، فإنها كذلك تظهر الناس على معادنهم وحقيقتهم ، ولله درُّ القائل:

جــزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

إن موقف الصديق (رضي الله عنه) وثباته على المبدأ ونصرته لصديقه في الحق عند الأزمات ، لرسالة لكل من وجد أخاه في أزمة أو شدة أو ضيق ، أن يسرع إلى مساندته وتأييده وبكل ما يملك من قوة ، وأن يسهم في رفع هذه الشدة عنه ، فعند المحن والشدائد يظهر العدو الضاغن من الصديق الصادق.

ومن الدروس المستفادة: التحذير من الفواحش وبيان عقوبتها ، فقد رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) في رحلة الإسراء والمعراج أحوال الزناة ، وأهل الغيبة والنميمة ، والمتثاقلين عن إقامة الصلاة ، ومانعي الزكاة ، ومضيعي الأمانة ، وخطباء الفتنة ، وأكلة أموال اليتامى والربا ، ومآل كل واحدٍ منهم ، فحذر من هذه الفواحش ، وبين آثارها المدمرة على الفرد والمجتمع.

ومن ثَمَّ فيجب أن نأخذ العبرة والعظة من هذه الرحلة المباركة ، حتى لا يحل بنا من العقاب مثل ما حل بمن رآهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وحتى يشملنا الله تعالى بعنايته ورحمته.

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

من الدروس المستفادة أيضًا: بيان مكانة المسجد الأقصى عند أمته (صلى الله عليه وسلم) ، فهو جزء لا يتجزأ من المقدسات الإسلامية ، انتهى إليه إسراء نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، ومنه بدأ معراجه إلى السموات العلى ، ثم إلى سدرة المنتهى ، فلبيت المقدس مكانة عند الله تعالى ، ومكانة في قلوب أمة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فهو أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، وأحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) وَمَسْجِدِ الأَقْصَى" (متفق عليه) ، وهو ثاني مسجد بني على الأرض ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ

أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: "الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ" قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "الْمَسْجِدُ الأَقْصَى" قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: "أَرْبَعُونَ سَنَةً ، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ" (مُتفقٌ عَليْه).

ولعل أهم درس نأخذه من دروس الإسراء والمعراج: درس الأمل وعدم اليأس ، فقلب المؤمن لا يجزع ولا ييأس ، وأمور العباد والبلاد بيد الواحد الأحد ، الذي {أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] ، شريطة أن نسعى وأن نأخذ بالأسباب ؛ لأن الأمل بلا عمل أملٌ قعيدٌ أَشَلُّ ، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: "لاَ يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُمْ عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي وَقَدْ علِمَ أَنَّ السَّمَاءَ لاَ تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً" (إحياء علوم الدين) ، فالإسلام دين لا يعرف التواكل ، بل يحاربه وينبذه ، ولا يعرف التواني والكسل والخمول ، وإنما هو دين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، يقول (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" (سنن الترمذي) ، فالطير هنا لا تبقى ساكنة في أوكارها ، إنما تأخذ بالأسباب فتغدو وتروح.

وقد علَّم النبي (صلى الله عليه وسلم) الأمة أن الأخذ بالأسباب أمر ضروري لاستقامة الحياة واستقرارها ، فضرب (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في الأخذ بالأسباب حين ركب البراق ، واقتدى في المسيرة بجبريل (عَلَيْهِ السَّلام) ، ثم ربط البراق قبل الصعود إلى

السماء ولم يتركه هملاً ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم): "فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِها الأَنْبِيَاءُ" (صحيح مسلم).

* * *

فضائل شهر شعبان
وفضل العمل الصالح فيه

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الأنعام: ١٦٠] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـد:

فمن فضل الله تعالى ورحمته بعباده أن جعل لهم أوقاتًا يضاعف لهم فيها الأجر والثواب ، وجعل لهم مواسم يستكثرون فيها من الطاعات ويتزودون فيها بخير زادٍ ، عملاً بقول الله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧] ، ويصورها قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ لِرَبِّكُمْ (عز وجل) فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لاَ يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا" (المعجم الأوسط للطبراني) ، وها هي أيام الخير تتوالى ، وشهور النفحات والرحمات يتبع بعضها بعضًا ، ونحن في هذه الأيام المباركة نعيش بين الحين والحين في مناسبات دينية توقظ النائم وتنبه الغافل ، وتهذب السلوك ، فبالأمس القريب احتفل المسلمون بذكرى الإسراء والمعراج ، تلك المعجزة التي

اختص الله (عز وجل) بها سيد الخلق محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، وسجلها القرآن الكريم وخلدها بأن سمى في القرآن سورة باسم سورة الإسراء .

واليوم نعيش بين يدي شهر شعبان المكرم ، الذي يتشعب فيه الخير وتكثر فيه النفحات الإلهية ، والعطايا الربانية ، شهر جعله الله تعالى مقدمة للخير وبداية لموسم الطاعات والقربات إلى رب العالمين.

وكلما هلَّ علينا شهر شعبان من كل عام أيقظنا من غفلتنا ، وحثنا على المزيد من الأعمال الصالحة إرضاءً لرب العالمين وطلبًا للثواب والغفران ، فهو شهر يستجيب الله تعالى فيه الدعاء ، وتفتح فيه أبواب السماء ، وترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، وهو شهر عظيم كرَّمه الله (عز وجل) ، وكرَّمه رسوله (صلى الله عليه وسلم).

فمن تكريم الله (عز وجل) لهذا الشهر العظيم: نزول الأمر بالصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه ، حيث نزل فيه قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦] ، فقد قال كثير من العلماء والمفسرين: إن هذه الآية نزلت في شهر شعبان.

ولقد وعد الله (عز وجل) من يصلي على عبده ورسوله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بالخير الكثير والثواب الجزيل ، فعَنْ

أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ" (صحيح ابن حبان) ، زاد النسائي: "ورُفِعَتْ له عَشْرُ دَرَجَاتٍ" (سنن النسائي).

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، لاَ تَنْبَغِي إِلاَ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ" (صحيح مسلم)

ومن تكريم الله تعالى لشهر شعبان: فرضه صيام رمضان فيه على أمة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، فقد فرض في شعبان من السنة الثانية للهجرة النبوية.

ومن تكريم الله تعالى لشهر شعبان: أن خصه سبحانه وتعالى برفع أعمال العباد إليه ، كما أخبرنا بذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) فالسعيد من يرفع عمله في صحيفة بيضاء نقية ، والشقي من حرم الأجر والثواب ، ورفع عمله مشحونًا بالسيئات.

ومن تكريم الله تعالى لهذا الشهر الكريم: أنه سبحانه وتعالى يتفضل فيه بالعطاء على أهل الصفاء والنقاء الذين سلمت صدورهم

من الغل والحقد ، فيغفر لهم ذنوبهم في ليلة النصف منه ، فَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ (رضي الله عنه) أن رَسُول اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "يَطْلُعُ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ" (صحيح ابن حبان).

وأما عن تكريم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لشهر شعبان فإن لهذا الشهر مكانة عظيمة ، ومنزلة رفيعة عنده (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقد كان يخصه بمزيد من العبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله (عز وجل) ، وكان يكثر فيه من الصيام ، مما لفت أنظار أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) ، فسألوه عن سرِّ اهتمامه بهذا الشهر الكريم.

فعن أُسَامَة بْن زَيْدٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ ، قَالَ: "ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ" (سنن النسائي).

وفي الصحيحين ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) أَنَّهَا قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لاَ يُفْطِرُ ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لاَ يَصُومُ ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ رَمَضَانَ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ" (متفق عليه)، وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) عَنِ

النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ " لَمْ يَكُنْ يَصُومُ مِنَ السَّنَةِ شَهْرًا تَامًّا إِلاَّ شَعْبَانَ يَصِلُهُ بِرَمَضَانَ " (سنن أبي داود).

فهذه الأحاديث وغيرها تشير إلى بعض أسرار هذا الشهر الفضيل ، وعلى بعض الأسباب التي جعلت الرسول (صلى الله عليه وسلم) يختصه بمزيد من العبادة والطاعة ، خاصة الصيام.

ويمكننا إجمال ذلك في الأمور التالية:

الأمر الأول: كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يفعل ذلك ليلفت أنظار المسلمين إلى العناية بهذا الشهر الكريم ، والإقبال على الله تعالى بالطاعات والمزيد من القربات ؛ ليكونوا على صلة دائمة بخالقهم (عز وجل) ، فإن العبد إذا تقرب إلى ربه شبرًا تقرب إليه ربه ذراعًا .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلى بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلى ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" (متفق عليه).

والحق سبحانه وتعالى يقول: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الأنعام:١٦٠].

الأمر الثاني: أن هذا الشهر يغفل الناس فيه عن عبادة الله (عز وجل) ؛ لأنه يقع بين شهرين عظيمين ، شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التي يجتهد فيها الناس بالعبادة ، ويكثرون فيها من الطاعة ، وشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ويخصه الناس بمزيد من العبادة والتقرب إلى الله تعالى ، فيغفل الناس عن شعبان لوقوعه بين هذين الشهرين ، وتفتر الهمم عن العمل ، فيقَصِّرُون في العبادة والطاعة ، فأراد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن ينبه الناس إلى منزلة هذا الشهر الكريم ، وأن أفضل الذكر عندما يكون الناس في غفلة عن ربهم (عز وجل).

وأعظم الطاعات عندما ينصرف الناس عن طاعة مولاهم ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: "كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) إِذَا لَقِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، يَقُولُ: تَعَالَ نُؤْمِنْ بِرَبِّنَا سَاعَةً ، فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِرَجُلٍ ، فَغَضِبَ الرَّجُلُ .

فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلاَ تَرَى إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ يُرَغِّبُ عَنْ إِيمَانِكَ إِلَى إِيمَانِ سَاعَةٍ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ رَوَاحَةَ ، إِنَّهُ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَتَبَاهَى بِهَا الْمَلاَئِكَةُ" (مسند أحمد) .

فالعبادة في وقت الغفلة أبعد ما تكون عن الرياء ، وأقرب للإخلاص وأدعى للقبول ، وأعظم للأجر والثواب.

وتأتي عبادة الصوم على رأس العبادات لأنها سر بين العبد وربه ، ويعظم فضلها وقت غفلة الناس عنها لذلك يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا" (متفق عليه)، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْه) قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أيُّ الصَّوْمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "صَوْمُ شَعْبَانَ تَعْظِيمًا لِرَمَضَانَ" (السنن الكبرى للبيهقي).

الأمر الثالث: أنه شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، كما أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ" (سنن النسائي).

ومن المعلوم أن أعمال العباد تعرض على الله تعالى كل يوم وليلة ، ففي صحيح مسلم ، عَنْ أَبِي مُوسَى ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ (عز وجل) لاَ يَنَامُ ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ" (صحيح مسلم).

ثم تعرض عليه في كل اثنين وخميس ، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ

يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا ، إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا ، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا ، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا" (صحيح مسلم) .

ثم تعرض عليه سبحانه وتعالى أعمال السنة كلها عرضًا سنويًّا في شعبان ، كما في حديث أسامة ابن زيد (رضي الله عنهما).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لعلّ الحكمة من رفع الأعمال في هذا الشهر خاصة هو أن شهر شعبان هو نهاية العام التشريعي من كل عام ؛ إذ إن بدء نزول القرآن الكريم كان في شهر رمضان ، وبه كان التكليف ، وبآياته شرعت الأحكام ، وعن طريقه عرف الحلال والحرام ، وبذلك يكون قد بدأ قلم التسجيل في رمضان ، وينتهي العام التشريعي في شعبان .

ومن ثمَّ ترفع الأعمال إلى الله رب العالمين ، فالسعيد من يرفع عمله وهو على طاعة وعبادة وعمل صالح لله (عز وجل).

وإذا كان فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) من كثرة صيامه وطاعته لله رب العالمين في شهر شعبان يحثنا على المزيد من العمل الصالح تقربًا إلى الله تعالى ، فإنه سبحانه وتعالى يأمرنا بالتقوى ويحثنا على مداومة طاعته طيلة العام ، ويدعو كل مؤمن إلى مراقبة نفسه ومراجعة حسناته وسيئاته ، عسى أن يتزود المحسن من الطاعات ، ويتدارك المسيء ما مضى وفات ، فيقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ١٨: ٢٠].

وجدير بالذكر أن العمل الصالح هو البرهان على صدق إيمان العبد بربه ؛ لذا كان مقترنًا به في كثير من الآيات الكريمة ، ولقد ساق لنا القرآن الكريم ألوانًا من البشارات التي بشر الله بها عباده الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ، فقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [الكهف: ٨٨] ، فتارة يبشرهم بالجنات التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيقول سبحانه: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥] ،

وقوله:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨٢] ، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً} [الكهف:١٠٧] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وتارة يبشرهم بالزيادة من فضل الله (عز وجل) ، فيقول تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: ١٧٣] ، كما يبشرهم بالهداية التي تجعل صاحبها يعيش في أمان واطمئنان وسعادة ، فيقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: ٩] ، فالعمل الصالح هو زاد الآخرة ، وهو سفينة النجاة ، وصاحبه من أفضل الناس عند الله تعالى.

يقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: ٧]، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) حين سئل: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ" قِيلَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: "مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ" (سنن الترمذي).

فالإيمان بالله (عز وجل) والعمل الصالح هما سبب الفلاح في الدنيا والآخرة ، وبهما تنزل الرحمات ، وتحل البركات وترفع الدعوات وبهما تفرج الهموم والكربات ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧] ، ويؤكد ذلك حديث الثلاثة

الذين احتبسوا في الغار ، وما نجوا من هذا الموقف إلا بعد أن دعوا الله تعالى بصالح أعمالهم ، ففرج الله عنهم ما هم فيه ؛ فليسارع كل مسلم إلى الأعمال الصالحة وخاصة في أيام شهر شعبان ، وهي كثيرة ومتنوعة وأبوابها واسعة ، فمنها: التوبة إلى الله (عز وجل) من الذنوب والآثام.

ومنها: كثرة الصوم ، وصلة الرحم ، والعطف على اليتامى والمساكين ، والمحافظة على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، وحسن الظن بالناس والثقة فيهم ، وغيرها من أعمال الخير والصلاح التي لا يقوم بها إلا أهل الخشية من الله الذين يؤمنون بآيات الله وكلامه .

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون:٥٧ – ٦١].

ولنعلم جميعًا أن العمل الصالح كما يشمل العمل الديني من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك من العبادات ، فإنه أيضًا يشمل العمل الدنيوي من زراعة وتجارة وصناعة وكل عمل نافع أحله الله (عز وجل) لعمارة الكون، وبذلك يعد شهر شعبان مدرسة يمارس فيها المسلمون ألوان الطاعة علمًا وفقهًا وسلوكًا ، وخصوصًا ما يتعلق منها

بالصيام والقيام ، حتى يكونوا مؤهلين للدخول في رمضان الذي يعد جامعة كبرى لألوان الطاعات كلها ، من صيام وقيام وصدقة وتسبيح وذكر وقرآن ، وحتى يستغلوا هذا الشهر في محو سيئاتهم وغفران ذنوبهم ؛ ليلقى المؤمن ربه بصحيفة بيضاء نقية.

شهر بهذا الخير والبركة حري بكل مسلم أن يسارع فيه بالأعمال الصالحة تقربًا إلى الله (عز وجل) ، وأن يبادر فيه باغتنام أيامه الفاضلة، وأن يقتدي بهدي النبي (صلى الله عليه وسلم) فيه ، وأن يعلم أن العبادة في وقت غفلة الناس يحبها الله تعالى ، ويثيب عليها أكثر من غيرها.

* * *

تحويل القبلة دروس وعبر

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ١٤٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فقد شاءت إرادة الله (عز وجل) أن فضَّل بعضَ الشهور على بعض ، وجعل لها من المزايا ما يحث المؤمن على استثمارها بالأعمال الصالحة ، وشهر شعبان من الشهور المفضلة التي يتشعب فيها الخير وتكثر فيها النفحات ، قال (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ لِرَبِّكُمْ (عز وجل) فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لاَ يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا" (المعجم الأوسط) ، والمؤمن الذي يتعرض لنفحات الله تعالى في هذا الشهر الكريم هو الكيس الفطن الذي يغتنم تلك الأيام بالطاعات والعبادات.

وإن لشهر شعبان مكانته ومنزلته الرفيعة عند النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث كان يخصه بمزيدٍ من العبادة ، ويكثر فيه من الصيام ، فعن عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه

وسلم) يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لاَ يُفْطِرُ ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لاَ يَصُومُ ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ رَمَضَانَ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ" (مُتفَقٌ عَليْه) ، ولما سُئل عن ذلك بيَّن (صلى الله عليه وسلم) أنه شهر تُرفع فيه الأعمال إلى الله (عز وجل) ، ويغفل أكثر الناس فيه عن التزود بالطاعة ، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ (رضيَ اللهُ عنْهُمَا) قَالَ: قُلْتُ: يَارَسُولَ اللَّهِ لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ ، قَالَ: "ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَب وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ" (سنن النسائي) ، ومن الأحداث العظيمة التي وقعت في هذا الشهر المبارك ، تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ، استجابةً لرغبة النبي (صلى الله عليه وسلم) وتحقيقًا لرجائه ، ويُعد هذا الحدث من أبرز مظاهر التكريم الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، حيث استجاب الحق (سبحانه وتعالى) لرغبة حبيبه ومصطفاه (صلى الله عليه وسلم) بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة المشرفة ، قبلة أبيه إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلام) ، فقد كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يتوجه في صلاته بأمر ربه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا وهو في المدينة المنورة ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يتلهَف شوقًا إلى نزول الوحي عليه بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فكان يرجو الله بقلبه ، ويدعوه بلسان حاله ، موقنًا بأن ربه سيحقق رجاءه ، فاستجاب الله

تعالى له ، وحقَّق له رجاءه ، فأمره أن يتوجَّه في صلاته إلى الكعبة المشرفة ، يقول الحق سبحانه: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: ١٤٤].

على أن ذلك يدل على أمرين: أولاً: عظيم مكانة النبي (صلى الله عليه وسلم) ورفعة شأنه ، وبيان منزلته عند ربه ، ثانيًا: مكانة الكعبة المشرفة ورفعة قدرها ، وليس ذلك غريبًا ولا مستغربًا.

ألم يقل الحق سبحانه على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم): {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١] ، ويقول سبحانه: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠] ، ويقول (عز وجل): {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ، ويقول سبحانه: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

وقد كان لحادث تحويل القبلة أكبر الأثر في النهوض بالمجتمع والارتقاء الإنساني؛ لما فيه من الدروس والعبر ، وإن من تلك الدروس والعبر:

أن الابتلاء والاختبار من سنن الله (عز وجل) في خلقه: فقد كان تحويل القبلة اختبارًا من الله تعالى لعباده ، ليرى مَن يَتَّبعُ الرسول ممن يَنْقَلِبُ على عَقِبَيه ، ولمعرفة مدى استجابة الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) وتصديقهم لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة أمرًا شاقًّا على النفوس ، إلا على الذين هدى الله ، وذلك بتسليم الأمر لله (عز وجل) ، فإن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، يقول الحق سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٤٣].

فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم لم يرتابوا في أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لأنهم على يقين جازم بأن كل ما جاء به رسول الله حقٌ لا مرية فيه ؛ لذلك قالوا: سمعنا وأطعنا ، وتحولوا في صلاتهم إلى الكعبة المشرفة دون ترددٍ ، استجابةً لأمر الله (عز وجل) ، ولم ينتظروا حتى يُتموا صلاتهم!! وإنما تحولوا في الحال وهم في هيئة الركوع ، حيث أراد الله لهم.

وهكذا شأن المسلم الصادق يدور مع أمر الله حيث دار ، وحيثما اتجه فوِجْهَتُهُ نحو الله: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥] ، وفي حديث ابن عمر

(رضي الله عنهما): " بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ " (مُتفَقٌ عَليْه).

لقد علّمنا الصحابة (رضي الله عنهم) كيف نستقبل أوامر وتعاليم الإسلام بهذه السرعة استجابةً لأمر الله تعالى وأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فلنتحول كما تحوَّل الصحابة في حادث تحويل القبلة إلى منهج الإسلام بكلياته وجزئياته تحوُّلاً إيجابيًّا إلى ما يرضي الله (عز وجل) ، وإلى ما فيه النفع للناس جميعًا.

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة: وسطية الأمة ، فلقد أصّل هذا الحدث العظيم مبدأ وسطية هذه الأمة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطًا لتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣] ، وإن وسطية الأمة وسطية شاملة جامعة ، وسطية في الاعتقاد والتصور ، ووسطية في الشعائر والتعبد ، ووسطية في الأخلاق والسلوك ، وفي النُّظُم والتشريع ، وفي الأفكار والمشاعر ، بعيدًا عن الغلو والتقصير ، أو الإفراط والتفريط.

ثم إن شهادة أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) على سائر الأمم على قدر ما تقتضي من التكريم تقتضي أن تكون أهلاً لهذه الشهادة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى

الله عليه وسلم): "يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ" ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] (صحيح البخاري).

وقد قال سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا عبد الله ابن مسعود (رضي الله عنه): "اقْرَأْ عليَّ القُرْآنَ" قال ابن مسعود: يَا رسول اللهِ ، أقرأُ عَلَيْكَ ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيرِي" فَقَرَأْتُ سورةَ النِّسَاءِ ، حَتَّى جِئْتُ إِلى هذِهِ الآيَة: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلاءِ شَهِيدًا} [النساء:٤١] قَالَ: "حَسْبُكَ الآنَ" ، فَالَتَفَتُّ إِلَيْهِ ، فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان. (متفق عليه).

فحريٌّ بنا أن نعود إلى الوسطية التي شرفنا الله (عز وجل) بها ، وأن نكون حقًّا أمة وسطًا في جميع شئوننا دون إفراط أو تفريط ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء:٢٩] ، وحيث يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧] ، ويقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله): "ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من

إحدى الجهتين لا يبالي أيهما أصاب الإفراط أو التفريط" ، ومن هنا يجب أن نكون مع التيسير والسماحة ، لا مع التسيب والتفريط ، ومع الالتزام الديني والقيمي والأخلاقي دون أي تشدد أو تطرف.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

من الدروس والعبر المستفادة من تحويل القبلة: الرباط الوثيق بين المسجد الحرام بمكة المكرمة ، والمسجد الأقصى بالقدس ، وإظهار العلاقة القوية بينهما ، حيث جعلهما الله سبحانه وتعالى شقيقين ، فالمسجد الحرام هو أول مسجد وُضع لعبادة الله (عز وجل) في الأرض ، والمسجد الأقصى هو ثاني المساجد ، فعن أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: "الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ" ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "الْمَسْجِدُ الأَقْصَى" ، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: "أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ" (متفق عليه) .

لقد ربط تحويل القبلة بين المسجدين كما ربط الإسراء والمعراج بينهما ، فقال سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[الإسراء: ١] ، ومن ثم يجب حمايتهما معًا ، وعدم التفريط في أيٍّ منهما ، فهما أمانة في أعناق المسلمين جميعًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولن تستطيع الأمة أن تحافظ على مقدساتها إلا بالاعتماد على الله (عز وجل) وتقواه أولاً ، ثم بوحدة صفِّها ، وبامتلاك أسباب القوة من خلال العلم والعمل والإتقان والإنتاج ، حتى تمتلك قوتها وغذاءها وكساءها ودواءها وسلاحها ، فتمتلك كلمتها وحريتها وإرادتها ، فالأمم التي لا تملك مقومات حياتها لا تملك كلمتها ولا إرادتها ولا استقلال قرارها.

على أن هناك أمرًا مهمًّا يجب أن نتنبه له ، وهو أن التحول ليس مجرد تحول مكاني ، إنما هو اختبار للعقيدة الصلبة والإرادة القوية والثقة في الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا أردنا أن يحوِل الله أحوالنا إلى الأفضل والأصلح في كل مجالات الحياة.

فعلينا أن نغير من أنفسنا بحسن التوكل على الله (عز وجل) واللجوء إليه ، وأن نعْمَل ونكِدّ ، وأن نتحوَّل من الهدم إلى البناء ، ومن البطالة والكسل إلى مزيد من العمل والإنتاج ، ولنتحوَّل من

التشدد والغلوِّ إلى السماحة واليسر ، ومن الجمود والتقليد إلى التأمل والتفكير ، لأن الله (عز وجل) يقول: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١].

* * *

استقبال رمضان بالعبادة والعمل لا البطالة والكسل

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فمن نعم الله (عز وجل) على عباده أن جعل لهم مواسم للخيرات والبركات ، ومَنَّ عليهم فيها بالنفحات والمزيد من الحسنات ، فيعملون قليلاً ويؤجرون كثيرًا ، وينفقون زهيدًا ويجزون مزيدًا ، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١].

ومن هذه المواسم العظيمة ما نحن مقبلون عليه من أيام مباركة وليال فاضلة ، وهو شهر رمضان المبارك ، شهر جعل الله صيام نهاره فريضة ، وقيام ليله سنة ، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ

كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة:١٨٣-١٨٥].

ونحن نستقبل هذا الضيف الكريم علينا أن نستشعر منزلته ومكانته ، ونتأهب لاستقباله ، فهو شهر تتطلع إليه قلوب المؤمنين ، وتتشوف لبلوغه أفئدة المتقين ، نهارُهُ مصونٌ بالصيام ، وليلُهُ معمورٌ بالقيام ، تهبُّ فيه رياحُ الأنس بالله ، وتجود الأنفسُ بما عندها نحو الله (عز وجل) ، إنه منحة ربانية لهذه الأمة ، فهو شهرٌ عظَّمه اللهُ وكرَّمه ، وأَعْظَمَ الثواب فيه لصُوَّامه وقوَّامه ، وهو بمثابة سوق يُتيحُه الله (عز وجل) لعباده كل عام مرة ليتاجروا فيه مع ربهم التجارة الرابحة.

ولقد حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم) على تهيئة أصحابه لاستقبال هذا الشهر الكريم ، واغتنام أيامه ولياليه بالمسارعة إلى الخيرات ، وطلب المغفرة والرحمات من رب الأرض والسموات ، فعَن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ ، فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، جَعَلَ اللَّهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً ، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا ، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ ..." (صحيح ابن خُزَيمة).

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا هبت نسائم شهر رمضان المبارك يُشيع البِشرَ ويَنشُر البهجة والسرور ، ويحث على العمل ، ويحذر من الكسل والتفريط ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ" (مسند أحمد).

ولقد كان الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أسرع الناس استجابة للتوجيهات النبوية الكريمة ، وأحرص الناس على الامتثال لها والعمل بموجبها ، فكانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ، ثم يدعونه ستة أشهر أخرى أن يتقبل منهم ، وكان من دعائهم: "اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي لِرَمَضَانَ، وَسَلِّمْ رَمَضَانَ لِي، وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي مُتَقَبَّلًا" (الدعاء للطبراني) ، فكانوا طوال العام في رحاب رمضان ، يستقبلونه بالدعاء والعبادة ، ويتهيأون لاغتنامه ، ويودعونه بالقرآن وبالعبادة.

ونحن على أعتاب شهر الخير وجب علينا أن نتأسى بصحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن نستقبل هذا الشهر الكريم بتوبة صادقة خالصة ، ونحاسب أنفسنا على التقصير في فعل الطاعات ، وكذلك المحاسبة على فعل المعاصي واتباع الشهوات ، بمنع أنفسنا من الاستمرار عليها ، والعزم على عدم العود إليها ، إنها دعوة لتوبة خالصة صادقة ، كما قال العلماء العاملون: "التخلية قبل التحلية".

هكذا ينبغي على كل مسلم أن يُعدَّ نفسَه ويجهزها ويؤهلها لاستقبال النفحات والرحمات والخيرات ، بتوبة نصوح تغسل ذنوبنا ، وتطهر قلوبنا ، وليكن نصب أعيننا أن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَال: "إِنَّ اللَّهَ (عز وجل) يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مسيء النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مسيئ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا" (صحيح مسلم).

فمهما أسرف الإنسان في المعاصي ، ومهما عظمت ذنوبه فلا ييأس من رحمة الله (عز وجل) فباب التوبة مفتوح ، قال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] ، وفي الحديث القدسي: عن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً" (سنن الترمذي).

فالتوبة والرجوع إلى الله تعالى من أوجب الواجبات ، وقد جاءت الدعوة الإلهية لجميع المؤمنين طائعهم وعاصيهم بالتوبة والرجوع

إلى الله (عز وجل) ، قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١] ، كذلك جاء الأمر بالتوبة من أجل تكفير السيئات ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: ٨]. إنها التوبة الخالصة الصادقة الجازمة التي تمحو ما قبلها من السيئات ، قال ابن كثير – رحمه الله –: ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هي أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي ، ويعزِم على ألا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي ردّه إليه.

إن التوبة المرجو قبولها من الله تعالى هي التي يقف صاحبها ساعة التوبة نادمًا عازمًا – بصدق بينه وبين الله تعالى – ألا يعود إلى المعاصي أبدًا ، ولذا فالمطلوب أن يكون الإنسان ساعة التوبة عازمًا على ترك المعصية وعدم الرجوع إليها ، قال تعالى:{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠] ، بهذه المحاسبة وبالتوبة والاستغفار يجب علينا أن نستقبل رمضان ، فما أحوجنا إلى رحمة الله تعالى ومغفرته.

وعلينا أن نغتنم هذا الشهر الكريم بالعبادة والطاعة ، وكثرة الصلاة وقراءة القرآن والذكر ، ففي الصحيحين من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي

الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" (متفق عليه).

وفي هذا الشهر الكريم نجد من أبواب الخير الكثير والكثير ؛ حيث رحمة الله القريبة من عباده ، وإجابة دعواتهم وتلبية حاجاتهم ، والعاقل من قام على أبواب الخير وفعل البر ، حيث ينظر الله تعالى إلى التنافس بين العباد في أبواب الخير ، فإياك أن تحرم نفسك في رمضان من رحمة الله تعالى ، فقد كانت وصية نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) لأمته باغتنام الفرصة والتنافس في الخير ، وهذا واضح في وصيته التي رواها الطبراني من حديث عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) أن الحبيب (صلى الله عليه وسلم) كان إذا أقبل شهر رمضان يقول: " أَتَاكُمْ رَمَضَانُ ، شَهْرُ بَرَكَةٍ ، فِيهِ خَيْرٌ ، يُغَشِّيكُمُ اللَّهُ فِيهِ ، فَتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ ، وَتُحَطُّ الْخَطَايَا ، وَيُسْتَجَابُ فِيهِ الدُّعَاءُ ، فَيَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلائِكَتَهُ ، فَأَرُوا اللَّهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا ؛ فَإِنَّ الشَّقِيَّ مِنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللهِ (عز وجل)" (مسند الشاميين للطبراني).

ومن فضائل هذا الشهر الكريم:

أنه تضاعف فيه الحسنات ، وتزداد فيه أسباب المغفرة ، والجنة تتزين وتتهيأ لاستقبال الصائمين والقائمين ، تُفتَّح أبوابها ، والنار تغلق أبوابها ، وتُسلسل الشياطين ، ويتسابق العباد إلى الخيرات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِذَا

جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ" (متفق عليه).

إن لشهر رمضان فضائل عظيمة ومكانة كبيرة ، ينبغي أن نعيها وأن نعيش في كنفها ، فهو شهر القرآن والصيام والذكر والقيام ، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٥].

وفي الحديث عَنْ أَبِي هريرة (رضي الله عنه) أن رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) كان يقول: "الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ" (صحيح مسلم).

فهو فرصة لمغفرة الذنوب ولمحو السيئات ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" (متفق عليه) ، فعلينا أن نغتنم هذه الفرصة ، حتى لا نكون ممن ذكرهم المصطفى (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه أَبِو هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَقَالَ: "آمِينَ آمِينَ آمِينَ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ حِينَ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ قُلْتَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ ، قَالَ: "إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي ، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ

اللَّهُ ، قُلْ: آمِينَ ، فَقُلْتُ: آمِينَ ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا ، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ، قُلْ: آمِينَ ، فَقُلْتُ: آمِينَ ، وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ، قُلْ: آمِينَ ، فَقُلْتُ: آمِينَ" (صحيح ابن حبان).

إن شهر رمضان مدرسة تتربى فيها الأمة الإسلامية ، تتعلم منها الصبر وتقوية الإرادة ، فيجد المسلمون في نهاره ثمرة الصبر والانتصار على الشهوات ، ويجدون في ليله لذة المناجاة والوقوف بين يدي ربهم ، وتتجسد فيه ملامح التلاحم بين المسلمين عامتهم وخاصتهم ، علمائهم وعامّتهم كبيرهم وصغيرهم ، ليكون الجميع يدًا واحدةً ، وبناءً متكاملاً ، لدفع تيارات الفتن ، وأمواج المحن.

فلنحرص في رمضان كله بل وفي كل حياتنا وأوقاتنا على أن نؤدي الصلاة في جماعة في بيوت الله (عز وجل) ، ولا يكن حالنا كحال المنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَ قَلِيلاً} [النساء: ١٤٢].وأن ننفق في سبيل الله ، ولا يبخل أحد منا ، ولا يخش الفقر و الفاقة ، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" (متفق عليه).

ولنعلم أن لنا إخوانًا فقراء علينا أن نتذكرهم ، فمن ملك الزاد وأطعم الطعام فقد فاز بأجر كبير وثواب عظيم ، فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا" (سنن الترمذي).

ولقد كان الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة في رمضان ، وما منع النبي (صلى الله عليه وسلم) سائلاً أبدًا ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ" (متفق عليه).

ألا فلنستقبل هذا الشهر الكريم بقلوب عامرة ونفوس طاهرة ، وتوبة صادقة خالصة ، فضاعفوا فيه الطاعات ، وحافظوا على حرماته ، وتزودوا فيه لآخرتكم ، حتى يشملكم الله برعايته وعنايته ورحمته ومغفرته ، فعَنْ أَبِي نَضْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، أَمَّا وَاحِدَةٌ: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ نَظَرَ اللهُ (عز وجل) إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّ خُلُوفَ

أَفْوَاهِهِمْ حِينَ يُمْسُونَ أُطَيِّبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ اللهَ (عز وجل) يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا: اسْتَعِدِّي وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِي وَكَرَامَتِي ، وَأَمَّا الْخَامِسَةُ: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ غَفَرَ لَهُمْ جَمِيعًا) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: "لاَ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُمْ" (شعب الإيمان للبيهقي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

ليس من الحكمة لعاقل أن يمسك عن الحلال في نهار رمضان ، امتثالاً لأمر الله ، ثم يفطر على حرام يضيع به صيامه وقيامه ، فالحق سبحانه وتعالى أمرنا بما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات ، فما دام الأكل حلالاً طيبًا فالعمل صالح مقبول ، فإذا كان الأكل غير حلال ، فكيف يكون العمل مقبولاً؟ فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ

طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١] ، وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ" (صحيح مسلم). فإذا ما صام الإنسان وأفطر على الحرام فلا ثواب لصيامه ، مصداقًا لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث: "رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ" (صحيح ابن خزيمة).

إن هذا الشهر الكريم شهر عبادة وعمل ، فالعملُ لِصالحِ الدين عبادة وتقرب لله (عز وجل) ، والعمل لصالح الوطن أيضًا عبادة وتقرب لله (عز وجل).

فرمضان شهر القرآن ، رمضان شهر الجود والكرم ، رمضان شهر الصبر ، رمضان شهر الرحمة ، رمضان شهر البر والصلة ، رمضان شهر الدعاء والإجابة ، وهو كذلك في كل ما ذكر ، غير أن هناك جانبًا مهمًّا من الجوانب قد يُفهم على غير وجهه الصحيح ، أو لا يكون فيه التطبيق على مستوى الفهم ، حيث يركن بعض الناس إلى الراحة والكسل ، أو التفرغ الكامل طوال الشهر للعبادة على حساب العمل ، أو التقصير في الواجب المهني أو الوظيفي ، أو إرجاء الأعمال إلى ما

بعد رمضان ، فيكون التأجيل والتسويف والترحيل ، أو شغل الوقت المخصص للعمل وخدمة الناس بمزيد من الصلاة وقراءة القرآن في ساعات العمل الرسمية ، حتى لو كان ذلك على حساب قضاء حوائج الناس أو تعطيلها ، أو حمل بعض الناس على الحضور إلى المصلحة الواحدة اليوم تلو الآخر تلو الذي يليه.

ونؤكد أن الإسلام قد وازن بين حاجة الروح والجسد دون أن تطغى إحداهما على الأخرى ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [الجمعة: ٩ ، ١٠]، فالعمل المحمود والمطلوب هو الذي يكون في مجال التنمية والإنتاج ، لا الهدم والتخريب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الحث على العمل: "مَنْ أَمْسَى كَالاًّ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ" (المعجم الأوسط) .

ويقول (صلى الله عليه وسلم): "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ– كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" (صحيح البخارى) ، ونبي الله داود (عليه السلام) كما أخبر عنه نبينا (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، ولم يمنعه صيامه من العمل ، بل العمل الشاق في صناعة الحديد ،

حيث يقول الحق سبحانه: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء :٨٠].

وإذا كان من أخص صفات الصائم المراقبة لله (عز وجل) ، فإن ذلك يقتضي مراقبة الله (عز وجل) في الوفاء بحق العمل ، فالذي يراقب صلاتك وصيامك وإمساكك عن الطعام والشراب هو هو من يراقب وفاءك بحق العمل أو تفلتك منه وتقصيرك في حقه.

وإذا كان من أهم ما يجب أن يحرص عليه الصائم أكل الحلال واستجابة الدعاء ، فعليه أن يدرك أنه إذا أخذ الأجر ولم يؤد حق العمل فإنه إنما يأكل سحتًا وحرامًا ؛ لأنه يكون قد أخذ أجرًا بلا عمل ، أو أخلَّ بالعقد والعهد والشروط التي يتطلبها العمل ، سواء أكان ذلك عملاً حكوميًّا أم خاصًا ، على أن حرمة المال العام أشد ، لأنه حق لأفراد الشعب جميعًا ، وهم سيختصمون من يفتئت على حقهم أمام الله (عز وجل) يوم القيامة.

إن أي عاقل يدرك أنه إذا أتعب نفسه بالجوع والعطش ثم أفطر على الحرام الخبيث فما انتفع بصلاة ولا صيام ولا دعاء ولا حج ؛ لأن نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول: "كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ" (شعب الإيمان للبيهقي) .

وقال (صلى الله عليه وسلم) "يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ"(سنن الترمذي).

وعلى هذا فالصيام ينبغي أن يدفع إلى مزيد من النشاط والعمل ، لا أن يدفع البعض إلى الركون إلى الراحة والكسل.

فرمضان شهر العزيمة وشهر الإرادة ، وينبغي لتلك العزيمة القوية والإرادة الفولاذية التي تقهر الجوع والعطش ، بل تقهر سائر الشهوات والموبقات والخصال الذميمة أن تقهر البطالة والكسل ، كما ينبغي أن تقهر العادات السيئة ، وبخاصة لدى المدخنين أو المتعاطين أو المدمنين ، فهذه فرصتهم للإقلاع عن هذه العادات السيئة والأوبئة والسموم المدمرة القاتلة.

* * *

منهاج المسلم وسلوكه في رمضان

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: ١٨٥] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فكلما أقبل شهر رمضان المبارك استقبله المسلمون بالفرح والسرور ، يرجون فيه رحمة الله (عز وجل) ، فهو منحة ربانية ، وعطية إلهية تُضاعف فيه الحسنات ويعظم الثواب ، ويغدق الله على عباده النفحات ، ويفتح لهم أبوابًا من الخير ومن المغفرة ، وتفتح فيه أبواب الجنة فلا يغلق منها باب ، وتغلق فيه أبواب النار فلا يفتح منها باب ، وتغل فيه الشياطين ، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، فيقبل أهل الإيمان على ربهم ، قال (صلى الله عليه وسلم): "إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ وَيُنَادِى مُنَادٍ يَا بَاغِىَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ وَيَا بَاغِىَ الشَّرِّ أَقْصِرْ وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ"(سنن الترمذي).

ورمضان هو شهر الصبر والرحمة والمغفرة والعتق من النار ، وهو شهر نزول القرآن الكريم هدية الله لخلقه ، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: ١٨٥] ، فرض الله (عز وجل) فيه عبادة من أعظم العبادات وهي عبادة الصوم ، التي تعلم الإنسان الكثير من الأخلاقيات التي تجلب له الخير والسعادة في الدارين ، فالصوم يعلم الإنسان الصبر والحلم وسعة الصدر والمراقبة والإخلاص لله (عز وجل) وتقواه ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون} [البقرة: ١٨٣].

ولقد أعد الله (عز وجل) للصائمين فضلاً كبيرًا وأجرًا عظيمًا ، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥] ، ومن ذلك:

أن الله (عز وجل) أضاف الصوم لنفسه إضافة تشريف وتعظيم ، لما للصوم من مكانة وشرف بين العبادات ، فعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ ، وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ" (متفق عليه).

فالصوم سر بين العبد وربه ، فإن الصائمَ قد يكون في موضعٍ خالٍ من الناس وبإمكانه أن يتناول ما حرَّم الله عليه بالصيام فلا يفعل لأنه يعلم علم اليقين أن له ربًّا يطَّلع عليه في أمره كله ، فيترُكه لله خوفًا من عقابه ، ورغبةً في ثوابه ، فشكر اللهُ له هذا الإخلاصَ ، فهو سبحانه أكرَمُ الأكرمين وأجوَدُ الأجودين ، وفضله واسع ، وكرمه غير محدود والعطيَّةُ بقدر مُعْطيها ، ومنها: أن الله تعالى أعطى الصائمين من أمة النبي (صلى الله عليه وسلم) مالم يعطه أحدًا قبلها ، فعن أَبِي نَضْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، أَمَّا وَاحِدَةٌ: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ نَظَرَ اللهُ (عز وجل) إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ حِينَ يُمْسُونَ أُطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ اللهَ (عز وجل) يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا: اسْتَعِدِّي

وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِي وَكَرَامَتِي ، وَأَمَّا الْخَامِسَةُ: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ غَفَرَ لَهُمْ جَمِيعًا" ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: لاَ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُمْ" (شعب الإيمان للبيهقي).

ومنها: أن الصوم أحد أبواب الجنة ، فعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ ، قَالَ: "لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيْتَ" ثُمَّ قَالَ: "أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ" ...الحديث (سنن الترمذى).

ومنها: أن الصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة مع القرآن الكريم ويقبل الله شفاعتهما فيدخله الجنة ، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ" قال: "فَيُشَفَّعَانِ" (مسند أحمد).

ومنها: تخصيص باب في الجنة للصائمين دون غيرهم يسمى باب الريان ، فعن سهل (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عن رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) قال: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُون لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ" (متفق عليه).

وغير ذلك الكثير والكثير من عطاء الله (عز وجل) للصائمين في رمضان مما يعجز اللسان عن وصفه ، فالصيام عبادة لا مثيل لها ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: "أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ: مُرْنِي بِأَمْرٍ آخُذُهُ عَنْكَ ، قَالَ: "عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ مِثْلَ لَهُ" (سنن النسائي).

والصوم الصحيح الذي يلتزم فيه صاحبه بالآداب الشرعية هو في الأصل مدرسة لتهذيب السلوك وتقويمه ، وتزكية النفس والسمو بها للوصول إلى الكمال ، وتطهير الجوارح من كل ما يغضب الله (عز وجل) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] ، فالصوم يؤصل في الناس خلق التقوى فيضبط سلوكيات المسلم وتصرفاته.

ولهذا أرشد النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) الشاب الذي لا يقدر على الزواج إلى الصوم ؛ لما يحققه الصوم من تهذيب النفس ليصل بها إلى العفاف ، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ

الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ" (متفق عليه) ، والمراد أن الصوم قامع للشهوة ، وكاسر لحدتها.

ولكي يؤتي الصوم ثمرته المرجوة لابد وأن نتلمس فيه هدي النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ونسير على خطاه ، فالخير كله في هديه (صلى الله عليه وسلم) ، فعلى كل مسلم أن يبذل وسعه وطاقته في الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرا} [الأحزاب: ٢١].

وقد كان من هديه الشريف (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشهر الكريم: تناول السحور: فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً" (متفق عليه).

والبركة المقصودة هنا مادية ومعنوية ، أما المادية فإن طعام السحور يكون سببًا لعون المسلم على الصوم ، وأما المعنوية فهي الاستجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفيها من البركة ما فيها ، لذلك حرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على السحور ورغب فيه.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ ، فَلاَ تَدَعُوهُ ، وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ

أَحَدُكُمْ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّ اللهَ (عز وجل) وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ" (مسند أحمد).

والسُّنَّة فيه: التأخير ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ زَيْدَ ابْنَ ثَابِتٍ حَدَّثَهُ: "أَنَّهُمْ تَسَحَّرُوا مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، ثُمَّ قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ ، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ: قَدْرُ خَمْسِينَ أَوْ سِتِّينَ" ، يَعْنِي: آيَةً (صحيح البخاري).

ومنه: تعجيل الفطر والدعاء عنده: فهو أمارة على بقاء الخير في الأمة ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قال: "لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ" (متفق عليه) ، وقد كَانَ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا أَفْطَرَ قَالَ: "ذَهَبَ الظَّمَأُ ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ ، وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" (سنن أبي داود).

ومنه: الجود والكرم ، فعن ابْنِ عَبّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدَ النّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ" (متفق عليه).

ومنه: قيام الليل بالصلاة وقراءة القرآن الكريم ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْه): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" (متفق عليه).

ولقد سنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة القيام (التراويح) في رمضان ، فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) صَلَّى ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي المَسْجِدِ ، فَصَلَّى بِصَلاَتِهِ نَاسٌ ، ثُمَّ صَلَّى مِنَ القَابِلَةِ فَكَثُرَ النَّاسُ ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: "قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الخُرُوجِ إِلَيْكُمْ ، إِلاَ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ" وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ" (متفق عليه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن المسلم الحقيقي هو الذي يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى الكمال في عباداته ؛ ليكون عمله مقبولاً وذنبه مغفورًا وعيبه مستورًا وكل عمله وسعيه مشكورًا ، فيتجنب كل ما يؤدي إلى بطلان عمله استجابة لأمر الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٣] ، فينبغي على المسلم

تجنب الأعمال المذمومة على مدار العام عامة وفي رمضان خاصة ، حتى لا يحبط عمله ويأتي يوم القيامة بصورة الرجل الذي أفلس ، وهو يظن أن معه من المال ما يحقق له ما يتمناه .

فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (صحيح مسلم).

ومن ثمَّ فليحذر المسلم من الأمور التي تتنافى مع آداب الصوم وأهدافه ، ومنها:

قول الزور وشهادته أو العمل به ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" (صحيح البخاري) .

فمن صام ولم يترك الكذب والعمل به فلا قيمة لصيامه ، قَالَ جَابِرُ ابْنُ عَبْدِاللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما): "إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ ، وَبَصَرُكَ ،

وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ ، وَدَعْ أَذَى الْخَادِمِ ، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صِيَامِكَ" (شعب الإيمان للبيهقى).

ارتكاب ما يتنافى مع الصوم من قبيح الأقوال والأفعال ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: "إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ ، فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّي صَائِمٌ" (صحيح مسلم) .

فالمسلم الحق يعلم أن الله رقيب عليه في كل أحواله وسيحاسبه على كل أقواله وتصرفاته ، قال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨].

الإسراف والتبذير في المأكل والمشرب والملبس ، فلقد نهى الله (عز وجل) عن ذلك على وجه العموم فقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١] .

وقال سبحانه: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦ ، ٢٧] .

فرمضان شهر تهذيب وتقويم للسلوك ، وليس شهر إسراف وتبذير في الطعام والشراب ، إن شهر رمضان فرصة عظيمة لتجديد العهد مع الله

(عز وجل) بالحفاظ على الدين ، واستثمار الأوقات في طاعة الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) .

فلنتخذ منه سبيلاً للعمل ، ووسيلة لدفع مسيرة الأمة نحو مزيد من التقدم والإنتاج.

□* * *

رمضان شهر المراقبة الذاتية
وصناعة الضمير الحي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابه العزيز: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٢: ١٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإنَّ شهر رمضان المبارك بما تضمَّنَه من عباداتٍ وقُرُباتٍ وأعمال صالحة مدرسةٌ تقَوِّم السلوك وتُهذب الأخلاق ، وتجعل المسلم في أعلى ما يكون من الأخلاق الفُضلَى والمُثُل العُليا ، يقول ربُّنا سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة :١٨٣].

فالصيام يربي النفس على مراقبة الله (عز وجل) في السر والعلن ، حيث يغرس في نفس الصائم الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى ، ويعلمه قوة الإرادة ، وضبط النفس ، ففي كثير من الأوقات يكون الطعام والشراب بين يدي الصائم بعيدًا عن أنظار الناس ، ومع ذلك يمتنع عن تناولهما خوفًا من الله (عز وجل) وخشية منه سبحانه ، وعلمه

بأن الله تعالى يراه ، فيزداد إيمانه فلا يخاف غير الله ، ولا يخشى سواه ، ومن هنا قال الحق سبحانه في الحديث القدسي: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَ الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، يَدَعُ الطَّعَامَ ، وَالشَّرَابَ ، وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي" (صحيح البخاري).

فالصائم حين يقضي نهار رمضان ممتنعًا عما أحله الله له من الطعام والشراب والجماع ، يجب أن يصاحب ذلك امتناع عن كل ما حرم الله ، فهو يستشعر دائمًا بمراقبة الله تعالى له ، ويحرص على أن يكون صومه كما أراده الله تعالى (إيمانًا واحتسابًا) فلا يريد أن ينقص إيمانه بمعصية ، ولا يضيع عليه أجر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ (عز وجل) هَبَاءً مَنْثُورًا" ، قال ثوبان: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا" (سنن ابن ماجه).

إنَّ الصائم الحق يظهر أثر صيامه في سلوكه وتعامله مع الناس ، حيث إن الصيام يُعَوِّد صاحبه على ضبط النفس ، والسيطرة عليها ، والقوة على الإمساك بزمامها حتى يتمكن من التحكم فيها ويقودها إلى ما فيه خيرها وسعادتها ، فإنَّ النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، فإذا أطلق المرء لنفسه عنانها أوقعته في المهالك ، وإذا ملك أمرها

وسيطر عليها تمكن من قيادتها إلى أعلى المراتب وأسنى المطالب ، وهذا لا يتحقق إلا لمن صام صومًا حقيقيًّا ، مستشعرًا عظمة ربه بذلك ، وقد صامت بطنه وفرجه ولسانه وجميع جوارحه عن كل ما حرم الله (عز وجل).

إن مراقبة الله تعالى من أهم القيم السامية والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام ، والمراقبة تعني: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ، مستحضرًا قول الله (عز وجل): {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١].

والمراقبة طريق الإخلاص الذي هو أساس قبول العمل عند الله (عز وجل) ، وقد حثنا الله تعالى على مراقبته في كل أحوالنا وتصرفاتنا ، فقال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة :٧] ، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء :١].

فإذا راقب الإنسان ربه في كل أحواله انضبط سلوكه وتصرفه ، وحسن عمله واستقامت حياته ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء

أثنوا عليه أم لا ، فلا يظلم نفسه ولا يظلم غيره ، حتى وإن غابت عنه رقابة البشر ، لأنه يدرك أن الله تعالى معه حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، فمراقبة الله تعالى تعصم الفرد والمجتمع من الزلل ، وهذه هي التقوى في أبهى صورها التي هي ثمرة الصيام ، والتي أوصى بها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) سيدنا أبا ذرّ حين قال له: أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا ... الحديث (مسند أحمد).

وقد عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المراقبة بالإحسان كما ورد في حديث جبريل (عليه السلام) حين سأله قائلاً: "...فأخبرني عَنِ الإِحْسَانِ؟" ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ..." (متفق عليه) ، فمن علم أن الله يراه حيث كان ، وأنه مطلع على باطنه وظاهره ، وسره وعلانيته ، واستحضر ذلك في خلواته ، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر ، فمراقبة الله تعالى هي ثمرة علم الإنسان بأن الله (عز وجل) ناظر إليه ، رقيب عليه ، مطلع على عمله ، سامع لقوله في كل وقت وحين ، قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤] ، ولله درُّ الشاعر حيث قال:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفُلُ ساعةً   ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيبُ

ألم تر أن اليوم أسـرعُ ذاهـبٍ   وأنَّ غـــدًا للنـاظريـــن قـريبُ

وتلك منزلة الإحسان العظمى ، وثمرة المراقبة في شهر الصيام ، قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر :١٩] ، " وقد خَرَجَ ابْنُ عُمَرَ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُ لَهُ، وَوَضَعُوا سُفْرَةً لَهُ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ، قَالَ: فَسَلَّمَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: " هَلُمَّ يَا رَاعِي، هَلُمَّ "، فَأَصِبْ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: " أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ شَدِيدٍ سُمُومُهُ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرْعَى هَذَا الْغَنَمَ؟ " فَقَالَ لَهُ: أَيْ وَاللهِ أُبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةَ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ يَخْتَبِرُ وَرَعَهُ: " فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ؟ " فَقَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: " فَمَا عَسَى سَيِّدُكَ فَاعِلًا إِذَا فَقَدَهَا، فَقُلْتَ: أَكَلَهَا الذِّئْبُ " فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ اللهُ، قَالَ: فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي وَهُوَ يَقُولُ: قَالَ الرَّاعِي: فَأَيْنَ اللهُ؟ قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلَاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي فَأَعْتَقَ الرَّاعِيَ، وَوَهَبَ لَهُ الْغَنَمَ " (شعب الإيمان للبيهقي).

على أن هناك فرقًا بين مراقبة الخالق ومراقبة المخلوق ، فمراقبة الخالق هي مراقبة من لا يغفل ولا ينام ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وكم يحتاج المسلم إلى أن يربي نفسه على مراقبة الله

دائمًا ، والعارفون يقولون: "لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله إلا أحسن الله فيما بينه وبين الناس".

والصائم الذي يراقب ربه في صلاته وصيامه وقيامه وركوعه وسجوده يجب أن يراقبه تمام المراقبة في عمله وإنتاجه وسائر تصرفاته ، فكثير من الناس يتقن عمله ويجوّده إن كان مراقبًا من رئيس له ، أو قصد به تحقيق غايات له ، أو سعى إلى السمعة والشهرة ، لأنه يفتقد المراقبـة الداخلية التي تجعله يؤدي عمله بإتقان في كل الحالات دون النظر إلى الاعتبارات التي اعتاد بعضهم عليها ، وكما أن شهر رمضان يعلمنا المراقبة الذاتية كطريق من طرق الإصلاح للنفس والمجتمع ، كذلك يساعد على صناعة الضمير الحي اليقظ الذي يخاف من الله (عز وجل) ويسعى لتحقيق مرضاته ، حتى إذا غابت عنه رقابة البشر وهمَّت نفسه بالحرام والإفساد في الأرض تحرك ضميره ؛ فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام ، قال سبحانه وتعالى: {وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار :١٠: ١٢] ، وقال تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٣ ، ١٤]، بهذا الضمير الإنساني اليقظ يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل ، فتجد صاحبه محافظًا على العبادات والطاعات ، والذكر ، وقراءة القرآن ، وبه ينضبط السلوك والتصرفات ، وتُحفظ الحقوق وتُؤدى الواجبات.

ولقد ربَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على يقظة الضمير ومراقبة الله (عز وجل) ، فقد أتى رجلان إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يختصمان في قطعة أرض ليس لأحدٍ منهما بينة ، وكل منهما يدعي أنها له ، وارتفعت أصواتهما ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلي وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا" (متفق عليه) ، عند ذلك تنازل كل منهما عن دعواه؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد حرك في نفوسهما الإيمان ، وارتفع بهما إلى مستوى عالٍ من يقظة الضمير والتهذيب الخلقي ، فكان ذلك حاجزًا لهما عن الظلم وأكل الحرام.

أما إذا مات الضمير وانعدمت المراقبة لله (عز وجل) نتج عن ذلك فساد في الأخلاق والمعاملات ، وكثير من جوانب الحياة ، لذا وجب علينا جميعا أن نراقب الله تعالى ، حتى تتنزل علينا رحمات الله تعالى ومغفرته في هذا الشهر الكريم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

من الصور السلبية التي تدل على موت الضمير وعدم المراقبة لله (عز وجل): الغش بجميع صوره وأنواعه ، فهو داء عضال وآفة خطيرة ، لا يقتصر خطرها على الفرد فحسب ، بل يمتد خطرها إلى المجتمع كله ؛ لأن الغش مظهر من مظاهر الكذب ، والكذب أمارة من أمارات النفاق ، ولأن الغش صناعة لا يحسنها إلا المنافقون الكذابون ، وهو محرم بإجماع المسلمين ، وصاحبه ليس على طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا على هديه ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا" (صحيح مسلم).

وكما يكون الغش في النوع والجودة بإخفاء العيب الموجود في السلعة ، يكون أيضًا في المقدار وتطفيف الكيل والميزان ، فقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى بإقامة الوزن بالقسط ، فقال (عز وجل): {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا} [الإسراء :٣٥] ، فمن تلاعب بالكيل والوزن توعده الله تعالى بالويل والخسران ، فقال سبحانه: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين:١-٣] ، فالواجبَ على البائع أن يَصْدُق في بيعه ، وأن لا يخدَع ولا يغشَّ ولا يخون ، بل يكون إخبارُه صحيحًا صِدقًا ، فمن صدق في بيعه وشرائه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ويكفيه

شرفًا وفخرًا أن ينال الجنة بفضل الله تعالى ورحمته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ" (سنن الترمذي).

ونحن بصدد امتحانات نهاية العام لأبنائنا الطلاب نؤكد أننا بحاجة ماسة بتذكير أبنائنا وبناتنا طلاب العلم ، والقائمين على العملية التعليمية بفضل العلم وآداب تحصيله ، وبيان حرمة الغش بكل صوره وأشكاله ، فالغش في الامتحانات فساد كبير ، وتزوير وتدليس ، وإعطاء شهادة أو قيمة لمن لا يستحق على حساب من يستحق.

وهو مما يجعل بناء الفرد هشًّا لا قيمة له ، ويدمر المجتمعات بقتل الكفاءات وتقديم غيرها عليها .

كما أنه يورث الأحقاد والضغائن ، ويفتح أبوابًا كثيرة من الفساد ، ونؤكد أن العواطف في العلم تفسده ، ولا تحقق تكافؤ الفرص ، بل هي وبال على الأسرة وعلى المجتمع

إن مراقبة الله (عز وجل) هي المخرج مما يعانيه المجتمع ، فإنه من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسانٍ حارسًا يحرسه ، أو مراقبًا يراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، لكن من السهل أن نُربيَ في كل إنسانٍ ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إلى الخير لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم.

لذا وجب علينا جميعا وخاصة ونحن في شهر رمضان أن نحيي ضمائرنا بتقوى الله تعالى ، ومراقبته ، حتى تتنزل علينا رحمة الله ومغفرته.

* * *

رمضان شهر الدعاء والإجابة والنصر

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فمن خصائص شهر رمضان المبارك أنه شهر الدعاء ، وشهر الإجابة ، وشهر الإنابة إلى الله (عز وجل) ، لأن الإنسان فيه يكون أقرب إلى الله تعالى من أي وقت آخر ، فكلَّما عظُمت معرفة الإنسان بربه وقويت صِلتُه به كان دعاؤُه له أعظم .

فالدعاء من أفضل العبادات التي يقوم بها الإنسان المؤمن ، شأنه عظيم ، ونفعه عميم ، ومكانته عالية في الدين ، فهو قمة الإيمان ، وسرّ المناجاة بين العبد وربه ، وهو من أعظم أسباب دفع البلاء ، كما أنه سبب لانشراح الصدر وتفريج الهم وزوال الغم ، به تفرج الكروب ، وتستجلب النعم ، وتدفع النقم ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ، وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ ، إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَن يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ ،

وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا" قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ ، قَالَ: "اللهُ أَكْثَرُ" (مسند أحمد).

والدعاء سلاح المؤمن في كل وقت ، وهو أكرم شيء على الله (عز وجل) ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تعالى مِنَ الدُّعَاءِ" (سنن الترمذي).

لذا فإن الله (عز وجل) يحب من يدعوه ، ويغضب ممن لا يدعوه ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ لَمْ يَسْأَلْ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ" (سنن الترمذي).

وقد أحسن الشاعر العربي حين قال:

لا تسألنَّ بُنيّ آدم حاجة ... وسلِ الذي أبوابُه لا تُحجب

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ويقول آخر:

وإني لأدعو اللهَ والأمرُ ضيقٌ ... عليَّ فما ينفك أن يتفرّجا

ورُبَّ فتى ضاقت عليه وجوهُهُ ... أصاب له في دعوة الله مَخْرَجا

ومما يبين مكانة الدعاء وعلوَّ شأنه في شهر الصيام أن الحق سبحانه وتعالى ربط بين الصيام والدعاء برباط وثيق ، ففي ثنايا حديث القرآن الكريم في سورة البقرة عن الصيام وفرضيته وبعض أحكامه يأتي قول الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] ، ليؤكد على ربط

الدعاء بالصيام والصيام بالدعاء ، وعلى أهمية الصيام في إجابة الدعاء ، فالآية تدل دلالة واضحة على ارتباطهما معًا ، وتبين أن من أعظم الأوقات التي يُرجى فيها الإجابة والقبول شهر رمضان المبارك الذي هو شهر الدعاء ، وخاصة عند ساعة الفطر ، حيث يقول النبى (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً مَا تُرَدُّ " (سنن ابن ماجه) ، ويقول أيضًا (صلى الله عليه وسلم): "ثَلاَثٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ، الإِمَامُ العَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ (عز وجل): وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ" (سنن الترمذي).

ولا شكَّ أن الدعاء من أعظم الطاعات ، وأنفع القربات ، لذلك سَمَّاه الحق سبحانه وتعالى عبادة في قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ" ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] (سنن أبي داود).

ولما كان للدعاء هذه المكانة العظيمة ، والمنزلة الجليلة ، جاءت آيات القرآن الكريم ، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) مبيِّنة فضله ومُنَوِّهة بمكانته وعظم شأنه ، ومرغِّبة فيه ، لأنه أساسُ العبادة وروحُها ، وعنوانُ التذلُّل والخضوع والانكسار بين يدي الله (عز وجل) وإظهار الافتقار إليه ، يقول الحق سبحانه: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٥ ، ٥٦] ، ويقول تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦٥] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ ، يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ" (سنن الترمذي) ، فهذه النصوص الشرعية تبين عظم شأن الدعاء وفضله.

وجدير بالذكر أن للدعاء آدابًا ينبغي المحافظة عليها والتأدب بها حتى تتحقق ثمرته ، ومن هذه الآداب:

الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، يقول تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥] ، ويقول سبحانه: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ١٤].

حضور القلب وحسن الظن بالله عند الدعاء ، قال (صلى الله عليه وسلم): "الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ (عز وجل) أَيُّهَا النَّاسُ ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ" (مسند أحمد) ، وفي الحديث القدسي يقول رب العزة سبحانه: ".. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ

كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ...الحديث" (صحيح مسلم).

ومن هذه الآداب: **تحري الحلال في المأكل والمشرب والملبس** ، قال (صلى الله عليه وسلم): "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١] ، وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: ١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ" (صحيح مسلم) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: تُلِيَتْ هَذِهِ الآيَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا} [البقرة: ١٦٨] ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ..." (المعجم الأوسط).

ومنها: **أن يكون الدعاء مشتملاً على شيء مشروع** ، ليس فيه تجاوز على أحد من خلق الله ، مع عدم استعجال الإجابة والمداومة على الدعاء. لقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

مَا الاِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ (أي ينقطع عن الدعاء)عِنْدَ ذَلِكَ ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ" (صحيح مسلم).

تخير الأوقات الفاضلة كثلث الليل الآخر ، قال (صلى الله عليه وسلم): "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ" (مُتفَقٌ عَليْه) ، ووقت السجود بين يدي الله (عز وجل) في الصلاة ، قال (صلى الله عليه وسلم): "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ" (صحيح مسلم) ، ويوم الجمعة ، قال (صلى الله عليه وسلم): "فِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ" (صحيح مسلم) ، ويوم عرفة ، قال (صلى الله عليه وسلم): "خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (سنن الترمذي) ، وعقب الانتهاء من الصلاة المكتوبة ، لقول أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه): قِيل: يا رسولَ الله أي الدُّعاء أسْمَعُ؟ قال: "جَوفُ اللَّيلِ الآخِرُ ، ودُبُرَ الصلواتِ المكتوباتِ" (سنن الترمذي) ، وغير ذلك من الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة التي ينبغي على المسلم استثمارها.

إضافة إلى شهر رمضان المبارك وما له من خصوصية بالدعاء ، وما فيه من منح ربانية وعطاءات إلهية في كل أوقاته ليلاً أو نهارًا ، فهو

شهرٌ عظيمٌ مرجوَّةٌ فيه الإجابة ، وحريٌّ بعباد الله المؤمنين أن يكثروا فيه من الدعاء ، وأن أفضل وقت للصائم يدعو الله (عزَّ و جلَّ) فيه هو وقت الإفطار ، بعد أن أنهى ذلك الصوم لله وما أصابه في ذلك اليوم من ظمأ وتعب لله (عزَّ و جلَّ) ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): "لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ" (شعب الإيمان للبيهقي) ، فعلى العبد أن يغتنم الفرصة ويطلب من الله ما يريد فإن الله تعالى يجيب له دعاءه ، فلا يبخل العبد على نفسه في أن يسأل ربّه كل ما يحتاجه ، فالبخيل من بخل بالدعاء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

كذلك من آداب الدعاء: أن يبدأ العبد دعاءه بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم يدعو بما شاء ، لحديث فضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ (رضي الله عنه) قال: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ ، لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(صلى الله عليه وسلم): "عَجِلَ هَذَا. ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ– أَوْ لِغَيْرِهِ–: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ (عز وجل) ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ" (سنن أبي داود).

وكما أن رمضان شهر الدعاء والإجابة فهو أيضًا شهر النصر الذي لا يأتي إلا مع الصبر والعمل والجد والاجتهاد ، ففي شهر رمضان نصر الله المؤمنين ببدر وهم قلة في العدد والعتاد حيث يقول الحق سبحانه: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٣– ١٢٦] ، انتصر المسلمون في شهر رمضان بفضل إيمانهم بالله (عز وجل) ، وحسن التوكل على الله ، مع الأخذ بالأسباب المتاحة.

وفي شهر رمضان كان فتح مكة الذي ضرب فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع المثل في مكارم الأخلاق وخاصة في العفو والصفح والتسامح والرحمة ، حين قال لأهل مكة: "مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟ قالوا: خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): " اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ" (السنن الكبرى للبيهقي).

وفي شهر رمضان أيضًا كان توفيق الله (عز وجل) لقواتنا المسلحة الباسلة بنسيجها الواحد في حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، وكان شعار جنودنا البواسل: الله أكبر ، مع الصيام والقيام والقرآن والدعاء الصادق ، فكان النصر المبين ، وطرد المعتدين.

وهنا نذكر بما قدمته قواتنا المسلحة ومصرنا الغالية من شهداء عظام ، رووا أرض الوطن بدمائهم دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعرض ، وما زال العطاء مستمرًّا في مواجهة الإرهاب الغاشم حتى تقتلعه من جذوره بإذن الله تعالى ، دفاعًا عن ديننا ووطننا وأمتنا العربية.

إن الإرهاب خطر داهم لا دين له ولا وطن ، فهو يضرب الأخضر واليابس ، ويستهدف شق الصف الوطني وإحداث الفتنة بين أبناء الوطن الواحد ، فعلينا أن نتكاتف ونتعاون معًا في مواجهة هذا الإرهاب الأسود الغاشم ؛ لتخليص الإنسانية من شره وخطره ، فنحن جميعًا شركاء في الوطن والمصير ، وأن هذا الوطن لنا جميعًا وبنا جميعًا على أسس إنسانية ووطنية راسخة ومتكافئة.

* * *

رمضان شهر الانتصارات

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران :١٦٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن الله (عز وجل) قد اختص شهر رمضان بالعديد من الفضائل ، فهو شهر القرآن ، وهو شهر الرحمة والإحسان ، وهو كذلك شهرُ الانتصارات والفتوحات ، فما من معركة من المعارك التي خاضها المسلمون في هذا الشهر العظيم إلا وقد منَّ الله تعالى عليهم فيها بالنصر والغلبة والتمكين ، فقد كانت حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في شهر رمضان عبادة وعمل ، وكفاح واجتهاد ، ولَم تكن نومًا ولا كسلاً ولا خمولاً.

وفي شهر رمضان أيد الله (عز وجل) المسلمين بالنصر في يوم بدر ، أول معركة فاصلة بين الحق والباطل ، حيث أكرم الله (عز وجل) المؤمنين بنصر من عنده على قلّة عددهم وعدتهم ، يقول الحق سبحانه: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٣– ١٢٦].

وفي هذا اليوم خرج جيش المشركين إلى المدينة متجبرًا مختالاً يريد غزو المسلمين في عُقر دارهم ، واستئصال شأفتهم ، ولقد صوَر لنا القرآن الكريم هذا المشهد في قوله تعالى: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [الأنفال :٤٧].

ثمَّ جاء الخبر إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أن المشركين يعدون العُدة لغزو المدينة ، وكان أهل المدينة قد بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حمايته داخل المدينة مما يحمون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) للصحابة: "أشيروا عليَّ أيها الناس" فتكلم جماعة من المهاجرين فأحسنوا ، ثم قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللّهِ امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللّهُ فَنَحْنُ مَعَك ، وَاَللّهِ لاَ نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلاَ إنّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلاَ إنّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فَوَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ سِرْت بِنَا إلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونِهِ حَتّى تَبْلُغَهُ" ، فأعاد رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) يقول: "أشيروا علي أيها الناس" ، وإنما يريد الأنصار ، فقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ – وهو سيد الأوس من الأنصار –: "وَاللّهِ لَكَأَنّك تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللّهِ؟" قَالَ: "أَجَلْ" ، قَالَ: "فَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ نلْقَى عَدُوّنَا غَـدًا ، إنّا لَصُبُرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ صُدُقٌ عِنْدَ اللّقَاءِ ، لَعَلّ اللّهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ" ، فَسُرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللّهِ (صلى الله عليه وسلم)" (دلائل النبوة للبيهقى) ، فكان التأييد والنصر من الله (عز وجل) للمسلمين في شهر رمضان بفضل إيمانهم بالله (عز وجل) ، وحسن التوكل على الله ، مع الأخذ بالأسباب المتاحة.

وفي شهر رمضان كان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وسببه غدر قريش وحلفائها من بني بكر ، بحلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بني خزاعة ، حيث هجموا عليهم ليلاً وقتلوهم رُكّعًا وسُجَّدًا ، فنهض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون لنجدتهم ، وفي هذا الفتح ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع المُثل في مكارم الأخلاق وخاصةً في العفو والصفح والتسامح والرحمة ، حيث جمع (صلى الله عليه وسلم) من آذوه وأخرجوه وتآمروا على قتله ، ثم قال لهم: "مَا تَرَوْنَ أَنّي صَانِعٌ بِكُمْ؟" قَالُوا:

خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قال: "اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ" (السنن الكبرى للبيهقي).

ولمَا سمع (صلى الله عليه وسلم) أحد أصحابه يقول: "اليَوْمَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ ، اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ" ، فَقَالَ" كَذَبَ سَعْدٌ ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ" (صحيح البخاري) ، وأعطى (صلى الله عليه وسلم) الأمان لمن دخل الكعبة ، ولمن أغلق على نفسه باب بيته.

وفي شهر رمضان كانت معركة عين جالوت: ففي الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـ ، استطاع الجيش المصري بقيادة السلطان سيف الدين قطز أن يوقف زحف التتار في معركة عين جالوت ، بعدما اجتاحت جيوش التتار معظم دول العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الهجري ، حتى أسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، ودمروا البلاد وقتلوا خلقًا كثيرًا ، حتى وقعت معركة عين جالوت ، فكانت بحق من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام ، حيث انتصر فيها المصريون انتصارًا ساحقًا ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُهزم فيها التتار ، وأدت المعركة لانحسار نفوذهم في بلاد الشام وإيقاف توغلهم إلى غير رجعة.

وأيضًا في رمضان كانت حرب العاشر من رمضان (١٣٩٣) هـ ، السادس من أكتوبر (١٩٧٣)م ، حرب العزة والكرامة ، حيث وفق الله (عز وجل) قواتنا المسلحة الباسلة في تحطيم أسطورة الجيش الذي

كان يزعم أنه لا يقهر ، ووجهت إليه ضربة أفقدته صوابه ، وكبحت كبرياءه ، وأجبرت العالم كله على احترام مصر وقواتها المسلحة ، وكان شعار الجندي المقاتل:"الله أكبر" ، مع الصيام والقيام والقرآن والدعاء الصادق ، فكان النصر المبين ، وطرد المعتدين.

وهنا نُذَكِّر بما قدمته قواتنا المسلحة ومصرنا الغالية من شهداء عظام رووا أرض الوطن بدمائهم دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعرض ، وما زال عطاء جيش مصر العظيم مستمرًّا في مواجهة الإرهاب الغاشم حتى يقتلعه من جذوره بإذن الله تعالى.

وستظل قواتنا المسلحة الباسلة صمام أمان لمصرنا الغالية ، ولأمتنا العربية والإسلامية ، فرجالها يحرصون على الشهادة حرصَ غيرهم على الحياة ، وهم على استعدادٍ تام للتضحية بالغالي والنفيس دفاعًا عن تراب هذا الوطن ، وقطعِ يدِ أي عابثٍ يريد أن يعبث بأمن الوطن أو استقراره ، فهي على مرِّ التاريخ درعُ الأمة وسيفُها ، والتاريخُ خيرُ شاهدٍ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

فإن من سنة الله (عز وجل) في الخلق أن جعل للنصر أسبابًا من أخذ بها فاز بحلاوة النصر ، ومن خالفها حُرِم النصر ، وقد جاء في القرآن الكريم ، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) نصوصٌ صريحةٌ واضحةٌ ، تبين هذه الأسباب وتحثنا على الأخذ بها ، منها :

الإيمان الصادق بالله (عز وجل) ، والعمل الصالح ، والإيمان الصادق يتمثل في: طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ويتجلى ذلك في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٥ ، ٤٦].

والمسلم الحق يدرك أن النصر لا يأتي إلا من عند الله لعباده المؤمنين ما داموا ينصرون الله سرًّا وعلانية ، وما داموا يستقيمون على منهج الله ، بطاعة أمره واتباع رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكم} [محمد :٧] ، فمن نصره الله (عز وجل) فلا غالِبَ له ، ولن يضُرَّه خُذلانُ الخاذِلين ، قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠] ، وقال (جلَّ ذكره): {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١: ١٧٣].

فبالإيمان بالله والعمل الصالح ، يتحقَّق النصر والتمكين للمؤمنين، قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١] ، وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور :٥٥].

كذلك من عوامل وأسباب النصر: الصبر والثبات وتحمل المشاق، ورمضان شهر الصبر والإرادة ، مع تحقيق التقوى والرقابة الدائمة لله (عز وجل) ، وكل هذا يمنح المسلم من القوة ما يجعله يقف أمام أعدائه ثابت الجأش ، قوي الإرادة ، يصبر ويصابر ويرابط إلى أن يحقق الله له النصر ، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠].

فالصبر الذي هو ثمرة الصيام ، هو أيضًا من أسباب النصر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): ".. وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ.. الحديث" (سنن الترمذي).

على أن المسلم لا يتوقف صبره على مواجهة العدو في ساحة المعركة فقط ، بل يمتد ليشمل جميع نواحي حياته في طريق دعوته ودفاعه عن هذا الدين.

ومنها: التوكل على الله (عز وجل) وحده ، والاعتماد عليه ، مع صدق الأخذ بالأسباب ، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٣] ، وقال سبحانه: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣]. ولقد حثنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على التوكل على الله تعالى فقال: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِه ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا" (سنن الترمذي).

ومنها: وحدة الصف والتآلف ، فإن الوحدة والتآلف يؤديان إلى قوة الأمة وقدرتها على مواجهة التحديات ، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣] ، وقال تعالى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

وقد أكدَ نبينا (صلى الله عليه وسلم) هذا المعنى بقوله: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (متفق عليه) ، وقال

(صلى الله عليه وسلم): "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ" (صحيح البخاري).

ومنها: **الأخذ بالأسباب** ، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠] ، وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يأخذ بالأسباب في كل أحواله وأيامه في ملاقاة الأعداء ، لذا كان النصر حليفه.

فحري بنا أن نستعيد روح الانتصارات في رمضان وفي غيره من الشهور ، وفي كل مجالات حياتنا لتحقيق التنمية والتقدم ، وتعزيز أركان الحق والعدل ، وحماية الأرض والعرض والكرامة ، حتى تستعيد أمتنا مكانتها ومهابتها بين الأمم والشعوب ، ولا يكون ذلك إلاَّ بالأخذ بأسباب النصر.

* * *

رمضان شهر الإنفاق والبر والصلة

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم: :{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان:٨ – ١١] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن شهر رمضان الكريم فرصة عظيمة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث جعله الله تعالى شهرًا لمضاعفة الحسنات ، ومغفرة الذنوب والزلات ، ولذا تكثر فيه الأعمال الصالحات من تلاوة القرآن ، وقيام الليل ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٥]. فهذه الآية الكريمة تبين لنا فضل هذا الشهر العظيم ، وفضل العمل فيه، وإن من الأعمال الفاضلة في هذا الشهر الكريم الجود والكرم ، ولقد حثنا الإسلام الحنيف على الجود والإنفاق في سبيل الله وابتغاء

مرضاته ، وتضافرت الآيات والأحاديث الحاثة على ذلك: قال الله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢].

وانظر إلى عصر الصحابة كيف تعاملوا مع الآيات التي تحث وترشد إلى الإنفاق ، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بِيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، قال أنس: فَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أنزل عليك: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إلى بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ تعالى فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أراك الله فَقَالَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وإني أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ فقَالَ أبو طلحة: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ" (متفق عليه).

وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما جاءته سهامه من خيبر جعلها في سبيل الله تعالى ؛ فعن ابْنِ عُمَرَ ، (رضي الله عنه) أَنَّ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالاً

قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ فَمَا تَأْمُرُ بِهِ قَالَ إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا ؛ قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لاَ يُبَاعُ ، وَلاَ يُوهَبُ ، وَلاَ يُورَثُ وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ وَفِي الْقُرْبَى وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ لاَ جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ وَيُطْعِمَ غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ. " (متفق عليه).

وعن عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ قَالَ حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ" (مسند أحمد) ومعنى ذلك: أن الصدقة تحمي صاحبها من حر الشمس في أرض المحشر حتى انقضاء الفصل بين الناس.

ولهذا فإن من أعظم الطاعات وأجل القربات في شهر رمضان الإنفاق وإطعام الجائعين ، وتقديم الصدقات ، وإفطارالصائمين ، فما أعظم أن يغتنم العبد هذا الشهر في فعل الخير وأعمال البر ، يقول (عليه الصلاة والسلام) فيما صحَ عنه ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا" (سنن الترمذي) ، أي: أنك إذا فطَّرت صائمًا كتب الله لك أجرًا كأجر الصائم دون أن ينقص من أجره شيء ؛ فالحرص على إفطار الصائم الفقير ، والمسكين ، والمحتاج ، مما تجود به النفس ، ولو بقليل من تمر ، أو مذقة لبن ، أو قطعة خبز ، فإن الصدقة تقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد الفقير

فيربيها الله تعالى لصاحبها ، كما يربي أحدكم فلوه كما جاء في الحديث الشريف.

وورد أن ابن المبارك كان كثير الإطعام للناس لأنه أدرك ما أعده الله تعالى لعباده من وقاية وحماية من هول الموقف في عرصات القيامة ، بسبب إطعامهم الطعام ، وجودهم على الأنام ، قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان:٨ – ١١].

وحين ننظر في جزاء الصدقات ، والإنفاق في سبيل الله على الفقراء والمساكين نجد أيضًا أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، كما في حديث معَاذ (رضى الله عنه) قَالَ: كنت مَعَ النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) فِي سفر فَأَصْبَحت يَوْمًا قَرِيبا مِنْهُ إِلَى أَن قَال: "أَلا أدلك عَلَى أَبْوَاب الْخَيْر ؟ الصَّوْم جنَّة وَالصَّدَقَة تُطْفِئ الْخَطِيئَة كَمَا يُطْفِئ المَاء النَّار ، وَصَلَاَة الرجل فِي جَوف اللَّيْل ثمَّ قَرَأَ {تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع}.." (سنن الترمذي) ، فالحرص كل الحرص على الصدقة ، ومراعاة الفقراء والمحتاجين ، والإنفاق في سبيل الله.

وفي الحديث الصحيح عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ: "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي ، وَمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ

أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ" (صحيح مسلم). أي: ليس لك إلا لقمة تؤكل ، أو ثياب تبلى ، أو صدقة تبقى.

ومما يدل على فضيلة الصدقة أنها تبقى له عند الله سبحانه وتعالى ، يدل لذلك ما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها) أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ "، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا ، قَالَ "بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا" (سنن الترمذي).

أي: أن الذي تنفقه في سبيل الله باقٍ لك ، ومدخر ثوابه عند الله سبحانه وتعالى ، كما قال الله (عز وجل): {مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل:٩٦].

وما أعظم الإنفاق في سبيل الله في هذا الشهر وغيره ، حيث يبشر الله المتصدق بالزيادة ، وأنه تعالى سيخلف عليه بل وسيزيد له في الحال ، فهذا أحد مفاتيح الرزق التي يستنزل بها رزق الله (عز وجل) ، يقول الله تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ:٣٩] ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" (متفق عليه).

إن الله تعالى يحذرنا مما قد يتصوره البعض من نقص للمال بالصدقة والإنفاق ، ويبين لنا أن ذلك محض وسوسة وتزيين من

الشيطان يقول تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عِلِيمٌ} [البقرة:٢٦].

إن فضل وأجر الإنفاق في سبيل الله عظيم ، والثواب على الصدقة كبير ، إنه يُضاعَف أضعافًا كثيرة ، قال (عز وجل): {مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٦١].

إن ذلك ليس مختصًّا برمضان فحسب ، لكن رمضان فيه مزيد من فضل الله (عز وجل) ومضاعفة الأجور ، فهل من مشمِّر ؟ وهل من منفق ومتصدق ؟ هل نحرص على أن نقوم بأعمال الخير ، ونفزع إليها ، ونرتبط بها ؟ إن ذلك ما ينبغي أن نتواصى به في هذا الشهر الكريم ، فإن للصدقة في رمضان خصوصية ليست في غيره ، فهو شهر الإنفاق ، وهو شهر الصدقة.

وإذا كنا بحاجة إلى كرم الله وجوده لا سيما في هذه الأيام المباركة ، فعلينا المسارعة إلى البذل والإنفاق والجود ، فإن الله (عز وجل) يكرم من يكرم عباده ، ويعطي السخي من عباده ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ" (متفق عليه) ؛ فشهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة و المغفرة و العتق من النار لا سيما في ليلة القدر ، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه

بالعطاء و الفضل ، والجزاء من جنس العمل ، ولهذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يزداد جوده وبذله في رمضان.

فأما عن جوده (صلى الله عليه وسلم) في رمضان:

فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة ؛ كما بيّن ذلك ابْن عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) حيث قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ" (متفق عليه) ، فينبغي الإكثار من الجود اقتداءً بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في سائر الأحوال عامة ، وفي رمضان خاصة.

وفي هذا الحديث دلالة على زيادة جود النبي (صلى الله عليه وسلم) في رمضان عن غيره من الأزمان ، وفي تشبيه جوده (صلى الله عليه وسلم) بالريح المرسلة وتفضيل جوده على ذلك يقول ابن حجر: "قال الزين بن المنير: وجه التشبيه بين أجوديته (صلى الله عليه وسلم) بالخير وبين أجودية الريح المرسلة: أن المراد بالريح ريح الرحمة التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذي يكون سببًا لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أي: فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم الغيث

الناشئة عن الريح المرسلة ، وأنواع جوده (صلى الله عليه وسلم) لا تنحصر ، والكلام في جوده يبدأ ولا ينتهي.

فهو أجود الناس على الإطلاق ، يتفنن (صلى الله عليه وسلم) في أنواع الجود ، ويُعطي كل من سأله ، لا يرد سائلاً ، حتى إنه (صلى الله عليه وسلم) قد يسأله رجلٌ ثوبًا عليه فيدخل بيته ويخرج وقد خلع ثوبه وأعطاه إياه ، وربما اشترى الشيء فأعطى ثمنه ورده على بائعه ، وربما اشترى وأعطى الثمن وزاده ، وربما استعار شيئًا فرده بأكثر وأطيب وأكبر منه ، وربما أهدى وتصدق ، وأعطى ، وربما قبل الهدية وأثاب عليها أكثر منها وأعظم وأوفر ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يفرح بأن يُعطي أكثر مما يفرح الآخذ بما يأخذ ، ففرحه (صلى الله عليه وسلم) بالعطاء أعظم من فرح الآخذ بالأخذ ، حتى إنه ليصدق عليه وحده عليه الصلاة والسلام قول القائل:

تـراه إذا مـا جـئته متـهلـلا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

فكان يجود (صلى الله عليه وسلم) بنفسه وماله ، ويصفح عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويعفو عمن أساء إليه.

لقد كان الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة في رمضان ، وما منع النبي (صلى الله عليه وسلم) سائلاً سَأَلهُ أبدًا ، بل لقد ورد في صحيح مسلم أن رجلاً جاء إلى المصطفى فسأله "فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ: يَا

قَوْمِ أَسْلِمُوا ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ" (صحيح مسلم).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن جود الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشهر الكريم ، واقتداءنا به عليه الصلاة والسلام في ذلك ، إنّما جاء ضمن دلالات خاصة يختص به هذا الشهر المبارك ، أهمها:

جود الله وعظيم فضله على عباده في رمضان ، ومدارسة القرآن وأثرها على النفس وغناها ، ومجالسة الصالحين وأثرها في استقامة السلوك وعلو الهمّة ، ومن ذلك: أن يبذل الإنسان ماله فيما ينفعه ، وفضل الصدقة عمومًا ، فكيف إذا كانت في رمضان.

ولما كان رمضانُ شهرَ الرحمةِ والجودِ ، فهو شهر بر وصلة ، فما ألطفَ أن يتعهد العبدُ أهلَه وذوى الأرحام في هذا الشهرِ المبارَك ، فيُدخِل عليهم الفرحةَ والسُّرور ، ويتقرَّب إليهم ، احترامًا للكبير ورحمةً للصغير وصلةً للرحم. فالصائم يَتشبَّه بأخلاقِ النبي (صلى الله عليه

وسلم) ، حيث كان (صلى الله عليه وسلم) يعتني في كلِّ أحوالِهِ بنفعِ الناسِ وإسداءِ الخيرِ لهم ، كما قالت له زوجه خديجة (رضي الله عنها): "كَلاَّ ، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِم ، وتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتَكْسِب المَعْدُومَ ، وتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ" (متفق عليه).

ولا ريبَ أنَّ الصائمَ يجد في شهرِ رمضان فرصةً لصِلَةِ أرحامِه وزيارةِ أهله وإكرام ذوي القربى منه ، وتعهدهم بالزيارة والسؤال ، وقد روى الشيخان عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "من أحَبَّ أن يُبسَطَ له في رزقِه ، ويُنسأ له في أثرِه ؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه" (متفق عليه) ، وما أعظم من أن يَتفقَّدَ العبدُ المؤمن أهله وأقاربه في رمضان ؛ فيُعين فقيرَهم ويرحم ضعيفَهم ويُنفِّس كربَ المبتلى منهم ؛ فقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ نَفَّسَ عن مؤمنٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كُرْبةً من كُرَب يوم القيامة" (صحيح مسلم).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) عن النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا" (صحيح البخارى).

كما أخرج الإمام مسلم بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِى قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونني ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَىَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَىَّ ، فَقَالَ: "لَئِنْ كُنْتَ

كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ" (صحيح مسلم) .

وَمَعْنَاهُ: "كَأَنَّمَا تُطْعِمهُمْ الرَّمَاد الْحَارّ ، وَهُوَ تَشْبِيه لِمَا يَلْحَقهُمْ مِنْ الأَلَم بِمَا يَلْحَق آكِل الرَّمَاد الْحَارّ مِنْ الأَلَم ، وَلاَ شَيْء عَلَى هَذَا الْمُحْسِن ، بَلْ يَنَالهُمْ الإِثْم الْعَظِيم فِي قَطِيعَته ، وَإِدْخَالهمْ الأَذَى عَلَيْهِ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّك بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لِكَثْرَةِ إِحْسَانك وَقَبِيح فِعْلهمْ مِنْ الْخِزْي وَالْحَقَارَة عِنْد أَنْفُسهمْ كَمَنْ يَسُفُّ الْمَلّ. وَقِيلَ: ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحْسَانك كَالْمَلِّ يُحَرِّق أَحْشَاءَهُمْ، وَاَللَّه أَعْلَم" (شرح صحيح مسلم للنووى).

إذًا فالأذى واقع على المسيء المقاطع ، أما المحسن الواصل فثوابه على الله تعالى الذي يعينه ويتولى أمره وفي دعوة صريحة لتفقد الأهل ، وتعاهد الأقارب وأولي الأرحام ، أمر الله بإعطائهم من الحقوق الواجبة لهم على أقاربهم الأغنياء ، من بر وصدقة ، قَال اللَّهِ تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الإسراء: ٢٦] .

قال تعالى:{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٣٦] ، فَأَوْجَبَ الله تَعَالَى حَقًّا لذَوي الْقُرْبَى والأرحام ، وَافْتَرَضَ الإِحْسَانَ إليهم ، وَالإِحْسَانُ يَقْتَضِي التعاهد بزيارتهم ، والإنفاق عليهم ، والقيام على مصالحهم.

فما أعظم أن نسعى في هذا الشهر الكريم من إقبالٍ على الخير وحرص على إفطار الصائمين وإكرامٍ للأقارب والأرحام ؛ إن رمضان جاء ليحرك الخير فينا ، فالخير في نفوسنا أصلاً لكن رمضان حرك ما كان راكدًا ، وساعد بنفحاته ووجوده الإيماني على ظهوره ، ألا فليكن رمضان بداية لنا لا نهاية للجود والكرم والبر وصلة الأرحام ، والإقبال على الخير.

* * *

ليلة القدر ليلة الرحمة والمغفرة والكرم الإلهي

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ * لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ} [القدر: ١: ٥] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلقد خصّ الله (عز وجل) الأمة المحمديةَ بخصائصَ عظيمةٍ وجليلةٍ ، وإنّ المتأمل في هذه الخصائص يجد العَجَبَ العُجَابَ ؛ لما حباه اللهُ لهذه الأمة عن غيرِها ، فرسولها أفضل الرُّسلِ بل أفضل الخلق على الإطلاق ، وهي أفضل الأُممِ ، قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} [آل عمران:١١٠] ، وشريعتها تتميز بالسماحة واليسر والرحمة ، وعملها وإن كان قليلاً إلا أن ثوابه وأجره أعظم من ثواب وأجر غيرها من الأمم ، وأعمارها وإن كانت قصيرة إلا أن فيها خيرًا كثيرًا ، فعوضها ربنا بليالٍ وأزمنة وأمكنة ومناسبات تتضاعف فيها الأجور ، فهي أمةٌ مخصوصةٌ ومصطفاة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومن الفضل الإلهي والعطاء الرباني الذي اختص الله (عز وجل) به الأمة

المحمدية عن سائر الأمم أن تفضَّل عليها بليلة واحدة في العام لو وُضعت عبادتها في كفة ، وعبادة ألف شهر ، أي ما يساوي ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر من عمر الإنسان في كفة أخرى ، لرجحت كفة عبادة ليلة القدر ، من قامها مبتغيًا بقيامه وجه الله محتسبًا الأجر والثواب من الله وحده ، غفر الله ذنبه ،وستر عيبه ، وأعلى قدره ، وفتح له أبواب رحمته ورضوانه ، إنها ليلة القدر التي يتجلى فيها أعلى مظاهر الفيض والكرم الإلهي ، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [القدر: ١: ٥] ، والقَدْر: هو الشرف والعز والكرامة يقال: فلان ذو قدر أي: ذو شرف ومكانة ، وهي كذلك ليلة القدر لما لها من الشرف والمكانة بين بقية الليالي ، فقد أنزل الله فيها كتابًا ذا قدر على نبي ذي قدر بواسطة ملك ذي قدر ليكون منهجًا لأمة ذات قدر.

وليلة القدر من التقدير ، يقدِّر الله فيها أعمال العباد في السنة من الليلة إلى مثلها من العام القادم من حياة وموت ، ورزق ، وسعادة ، وشقاء وغير ذلك ، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين} [الدخان: ٣ :٥].

وقد خص الله (عز وجل) هذه الليلة المباركة بمزيد فضله وعظيم كرمه بعدة خصائص ، منها:

نزول القرآن الكريم فيها: قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١] ، وكانت بداية هذا النزول في هذه الليلة المباركة ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، حَتَّى وُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَنَزَّلَهُ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَلَى مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) بِجَوَابِ كَلامِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَنَزَّلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) بِجَوَابِ كَلامِ الْعِبَادِ، وَأَعْمَالِهِمْ " (المعجم الكبير) ، وأول ما نزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان في رمضان حيث التقت الأرض بالسماء وتلقت الأرض أنوار السماء وبركاتها في هذه الليلة المباركة ليلة القدر ، فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهَا قَالَتْ: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، "فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ: اقْرَأْ ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ}

[العلق:١ :٣] ، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ...." (متفق عليه).

ومنها: **وصفها أنها ليلة مباركة**: قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [القدر: ١] ، ومن مظاهر بركتها أن الله (عز وجل) يغفر لمن قامها إيمانا واحتسابًا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" (متفق عليه).

ومن حرم بركتها فهو المحروم ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ دَخَلَ رَمَضَانُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ ، وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ ، وَلاَ يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلاَ مَحْرُومٌ" (سنن ابن ماجه).

ومنها: **أن عبادتها أفضل من عبادة ألف شهر** ، فعن مُجَاهِدٍ (رضي الله عنه) "أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَبِسَ السِّلاَحَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ قَالَ: فَعَجِبَ الْمُسْلِمُونَ

مِنْ ذَلِكَ قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ (عز وجل) {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [القدر: ١: ٣]" (السنن الكبرى للبيهقي) ، فعبادة ليلة بإخلاص تفوق حمل السلاح ألف شهر في سبيل الله ، والعدد هنا لا يقصد منه التحديد بل المقصود منه الكثرة حتى يجتهد الناس في طلب هذه الليلة.

ومنها: **نزول الملائكة ومعهم جبريل** (**عليه السلام**) ، **فيملؤون الأرض نورًا وجمالاً وسكينة في هذه الليلة المباركة** ، قال تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} [القدر: ٤] أَي: تتنزل فيها الملائكة من كل سماءٍ إِلى الأَرض ، أَو إِلى السماء الدنيا ، مع البركة والرحمة. وينزل معها الروح وهو جبريل (عليه السلام) كما قال الجمهور ، وخُصَ بالذكر لزيادة شرفه ، وعُلُو قدره فضلاً على أَنه النازل بالذكر.

ومنها: **أنها ليلة أمن وأمان** ، **وسلامة وسلام من بدايتها حتى مطلع الفجر** ، قال تعالى: {سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [القدر: ٥] ، وجاءت لفظة (سَلامٌ) منكرة لتفيد العموم ، وقدَمها على اسمها (هِيَ) لتفيد الاختصاص أَيْ: مَا هِيَ إِلاَ سَلاَمٌ ، وفي ذلك دعوة لنشر السلام في الأرض في هذه الليلة المباركة وغيرها من الليالي ، فبنشر السلام يعم الخير ، والبعد عنه يجلب كل شر ويمحق البركات ، وبسبب البعد عن السلام والإقبال على النزاع والخلاف حُرِم المسلمون بركة تحديدها ، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

(صلى الله عليه وسلم) خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَالَ: "إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ وَإِنَّهُ تَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ ، فَرُفِعَتْ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ ، التَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالخَمْسِ" ومعنى تلاحى: أي: تخاصم ، فبسبب هذه الخصومة والخلاف حُرمت الأمة الخير الكثير ، ولكن لعل في إخفائها الخير كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ" (صحيح البخاري) ، وذلك حتى يداوم العبد على الاجتهاد طوال العشر دون الاقتصار على ليلة واحدة فقط.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

ليلةٌ بهذا الفضل وبهذه الكرامة حريٌّ بكل مسلم أن يلتمسها فهي كالجوهرة الثمينة التي يسعى في طلبها من يريد الخير لنفسه ، وهذا ما أكدَه النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومع هذا تحراها بحثًا عن بركتها ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) اعْتَكَفَ

الْعَشْرَ الأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ ، ثُمَّ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ ، فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرٌ قَالَ: فَأَخَذَ الْحَصِيرَ بِيَدِهِ فَنَحَّاهَا فِي نَاحِيَةِ الْقُبَّةِ ، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فَكَلَّمَ النَّاسَ ، فَدَنَوْا مِنْهُ ، فَقَالَ: "إِنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأَوَّلَ ، أَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ ، ثُمَّ أُتِيتُ ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ" ، فَاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ .

قَالَ: "وَإِنِّي أُرِيتُهَا لَيْلَةَ وِتْرٍ ، وَإِنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي طِينٍ وَمَاءٍ" فَأَصْبَحَ مِنْ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ ، وَقَدْ قَامَ إِلَى الصُّبْحِ ، فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ، فَوَكَفَ الْمَسْجِدُ فَأَبْصَرْتُ الطِّينَ وَالْمَاءَ ، فَخَرَجَ حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ ، وَجَبِينُهُ وَرَوْثَةُ أَنْفِهِ فِيهِمَا الطِّينُ وَالْمَاءُ ، وَإِذَا هِيَ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ" (متفق عليه).

بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر الأمة أن تتحرى هذه الليلة لما فيها من العطاء والكرم الالهي .

فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يُجَاوِرُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَيَقُولُ: "تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن رَمَضَانَ" (متفق عليه).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى" (صحيح البخاري).

فأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بتحري هذه الليلة في العشر الأواخر ثم خصَّ من الليالي العشر الوتر منها ، ولم يحددها بليلة محددة ليجتهد الناس في طلبها ، ويجدّوا في العبادة ، وحتى يظل الأمل في فضل الله وكرمه وعفوه ومنته موجودًا ، ولقد فطن الصحابة (رضوان الله عليهم) لعظم مكانة هذه الليلة فتسابقوا بالخيرات طمعًا في ثوابها ، وتوجهوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالسؤال عن الدعاء المستحب في هذه الليلة ، فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، مَا أَدْعُو؟ قَالَ: "تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي" (سنن ابن ماجه). فهي ليلة يغفر الحق سبحانه فيها الذنوب.

فليتسابق المسلمون إلى الرحمة والعفو في هذه الليلة المباركة ويتخذوا منها عهدًا جديدًا لتجديد التوبة ولزوم الاستغفار والعمل الجاد المثمر ، وإعادة بناء النفس وتقويمها من جديد على الطاعة والإخلاص وحسن الصلة بالله (عز وجل) ، قال تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ..} [البقرة: ١٤٨] ، وقال جل شأنه: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١] ، ولنتاجر مع الله (عز وجل) بكل عمل صالح كصلة الأرحام والمحافظة على أعراض الناس وأموالهم ودمائهم والحرص على تحقيق السلام والأمان بما يعود بالنفع على الفرد والوطن ، ومن

كان قد أسرف على نفسه بالمعاصي والذنوب فليتبْ إلى الله جل جلاله ، وليعلم أن بابه مفتوح ، ينادي على عباده المؤمنين بقوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر: ٥٣] .

فالمؤمن الفطن يعلم أن أنفاسه معدودة وساعات إقامته في الدنيا محدودة ، ويعلم علم اليقين أن الحياة فرص من اغتنمها فاز وسعد ، ومن ضيعها خاب وخسر ، ولا توجد فرصة في العمر كفرصة ليلة القدر فلنغتنمها حتى ننال بركتها.

وإذا كنا نتعرض لرحمة الله تعالى بحق فعلينا أن نتراحم فيما بيننا ، فمن لا يَرحم لا يُرحم ، والراحمون يرحمهم الرحمن . وليس التراحم بمجرد كلمة أو سلام ، إنما التراحم سلوك ، إذ إن التراحم يستوجب التعاون والتكافل ، وأن يأخذ قوينا بيد ضعيفنا ، وغنينا بيد فقيرنا .

وها نحن مقبلون على عيد مبارك ينبغي أن نوسع فيه على الفقراء وأن نغنيهم عن السؤال في هذا اليوم ، وأن نخرج صدقة الفطر إلى مستحقيها ، ومن كان ذا سعة زاد في الصدقة والبر والصلة ، موقنًا بأن ما أنفق من خير فإن الله (عز وجل) سيخلفه ويضاعفه .

يقول الحق سبحانه: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١].

فليلة القدر ليلة الرحمة والمغفرة والكرم الإلهي، ومن واجبنا أن نغتم هذه الليلة المباركة حتى نكون أهلا لرحماة الله ورضوانه، والفوز بجناته.

* * *

الأعياد عبادة (خطبة عيد الفطر)

الحمد لله ، والله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فقد خلق الله تعالى الخلق لعبادته ، فقال (جل شأنه): {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦] ؛ ومفهوم العبادة في الإسلام لا يقتصر على أداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة ، ونحو ذلك ، بل هو مفهوم واسع وشامل لكل مناحي الحياة ، فكل ما يصدر عن المسلم من أقوال وأفعال من الأمور الواجبة والمستحبة فهو من العبادات التي يثاب العبد عليها ، بل إن ترك فعل المحرمات ، وإخلاص النية لله (عز وجل) في فعل العادات كل ذلك يدخل في مفهوم العبادة التي يثاب الإنسان عليها ، حيث يقول الحق سبحانه: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣].

وها هو شهر رمضان قد انقضت أيامه المباركة سريعًا بعدما تقلب العبد فيها بين ألوان من الطاعات والعبادات ، يرجو رحمة الله (عز وجل) وفضله ومغفرته ، واليوم أشرقت علينا شمس عيد الفطر المبارك ببهجته وفرحته ، أعاده الله علينا وعليكم وعلى العالم أجمع بالخير واليمن والبركات ، وهو نعمة تستحق الشكر ، كونه مظهرًا من مظاهر البهجة والفرح والسعادة ، بإكمال عدة الشهر ، وإتمام نعمة الله تعالى على عباده من جهة ، وكونه فضلاً من الله تعالى يوسع فيه على عباده بالخير واليمن والبركة من جهة أخرى.

إن العبد بصيامه رمضان قد أدى عبادة من أسمى العبادات ، حيثُ تَغلَّب على شهواته ، وقاوم رغباته ، وجاهد في تحقيق التقوى التي هي غاية الصيام وسبب لقبول الأعمال ، حيث يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] ، ويقول تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧] ، ثم يأتي يوم العيد ، يوم الجائزة ، والبراءة من الذنوب ، والطهارة من العيوب ، اليوم الذي يباهي فيه ربنا سبحانه بأهل الإيمان ملائكَته التي تقف على أبواب الطرق تبشر الصائمين بمغفرة ذنوبهم ، وقبول طاعتهم ، ورفعة منزلتهم ، فيبدأ المسلم يومه بالتكبير والصلاة والتقرب إلى الله (عز وجل) بالطاعة بعد الطاعة ، فبعد نعمة الصيام والقيام تأتي نعمة التهليل والتكبير ، يقول الحق سبحانه: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٥] ، وكان أحد العلماء يقول: إذا وفقني الله إلى طاعة ، ثم وفقني إلى شكر الطاعة ، علمت أن الشكر نعمة جديدة تحتاج إلى شكر جديد ؛ لأنها هداية جديدة.

فكما كان رمضان شهر عبادة وطاعة ، فإن الفرح بالعيد عبادة وطاعة ، فحق المسلم أن يفرح بيوم العيد ، حيث يقول سبحانه: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا ؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ" (متفق عليه).

وفي الأعياد تتجسد مظاهر الفرح المشروع ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا ، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الأَضْحَى ، وَيَوْمَ الْفِطْرِ" (سنن أبي داود)، وذلك من مظاهر سماحة الإسلام وعظمة شعائره ، فيوم العيد هو يوم سعادة وسرور وإدخال البهجة والفرحة على الناس جميعًا.

إن من مظاهر الفرح المشروع في الأعياد التوسعة على الأهل والأبناء والأحفاد بكل مظاهر التوسعة المباحة ؛ بالطعام والشراب والثياب والنفقات ، وغير ذلك ، وهذا كله من الأمور التي يثاب الإنسان على فعلها ، فقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن

أبي وقاص (رضي الله عنه): "إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ" (صحيح البخاري).

وكذلك ينبغي للإنسان أن يكون حريصًا على إدخال السرور على الناس جميعًا ، خاصة الفقراء والمساكين واليتامى ، فقد جعل الله (عز وجل) زكاة الفطر عفّة وإغناء للفقير عن سؤال الناس في هذا اليوم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "أُغْنُوهُمْ عَنْ طَوَافِ هَذَا الْيَوْمِ" (السنن الكبرى للبيهقي) ، فقوله (صلى الله عليه وسلم): "أُغْنُوهُمْ" ، أي: أعطوهم ما يحقق لهم الغنى ، ويكفيهم ذلّ المسألة ، ولم يقل (صلى الله عليه وسلم): أعطوهم ، ولا أحسنوا عليهم ، ولا تصدقوا إليهم ، وإنما قال: (أَغْنُوهُمْ) ، ترغيبًا منه (صلى الله عليه وسلم) في كفايتهم في هذا اليوم

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله ، والله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، الحمد لله وحده ، وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، ومَنْ اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر الفرح والسرور التي تندرج تحت مسمى العبادة في هذا اليوم تقوية الروابط والصلات المجتمعية ، ومن أهمها: صلة

الأرحام التي تعد من أعظم الواجبات ، وأفضل الطاعات ، فبها تنتشر المحبة بين الأهل والأقارب ، وتتآلف القلوب ، ويزيد الله بها في العمر ، ويبسط الله بها في الرزق ، ويبارك بها في المال ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ" (متفق عليه) ، والصلة تقتضي العفو والصفح ، ودفع السيئة بالحسنة ، لذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا" (صحيح البخاري).

ومن الصلة التي حث عليها الشرع الحنيف العمل على توطيد العلاقات الاجتماعية بين الناس جميعًا ، بالتزاور والتلاقي ، والتصافح ، والتهاني ، والتآلف ، والتعارف ،ونشر التراحم بين الناس كافة ، وذلك من أسمى العبادات التي تستجلب محبة الله (عز وجل) .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) "أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ: لا ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ (عز وجل) ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ" (صحيح مسلم) ، لذا كان من هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا اليوم أن يخرج المسلم إلى المصلى ماشيًا ، فعن

علي (رضي الله عنه) قال: "مِنَ السُّنَّةِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا وَأَنْ تَأْكُلَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ" (سنن الترمذي)، فلا يَرْكب إلا من عذر أو بُعد مسافة .

وكذلك من هديه (صلى الله عليه وسلم) أن يذهب المسلم إلى مُصلاه من طريق ، ثم يرجع من طريق آخر ، فعن جابر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قال: كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ) (صحيح البخاري) ، وذلك ليشهد له الطريقان عند الله يوم القيامة ، وليسلَم على عدد كبير من الناس ؛ وليتبادلوا التهاني فيما بينهم بهذا اليوم المبارك ، فعن جبير بن نفير (رضي الله عنه) ، قال: "كان أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: تُقُبِّل منا ومنك" (فتح الباري لابن حجر).

إن مواظبة العبد على فعل الطاعات بعد رمضان علامة من علامات قبول الصيام ، فإذا ما أتم الله علينا النعمة والفضل بصيام شهر رمضان ، فإنه يستحب لنا صيام الست من شوال التي حثنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على صومها ، ورغبنا فيها ، وأرشدنا إلى فضلها ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ" (صحيح مسلم).

* * *

ماذا بعد رمضان ؟
وماذا أفدنا منه ؟

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: ١٣]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فما أسرع ما تنقضي الأيام ، وما أعجل ما تنتهي الشهور والأعوام ، وتلك سنة الله (عز وجل) في خلقه ، لا تتبدل ولا تتحول ، قال تعالى: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً} [فاطر: ٤٣]، أيامٌ تمرُّ وأعوامٌ تكرُّ ، وفي تقلب الدهر عبر ، وفي تغير الأحوال مُدَّكر ، يقول سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: ٦٢].

بالأمس القريب كنا نعيش في شهر رمضان ، نصوم نهاره ونقوم ليله ونقرأ القرآن ونتصدق من فضول أموالنا ، ونتسابق إلى الخيرات فكان موسمًا عظيمًا للتجارة الرابحة مع الله (عز وجل).

وانقضى شهر رمضان بخيراته وبركاته ، فهنيئًا لمن صامه وقامه إيمانًا واحتسابًا ، وهنيئًا له التأسي بالسلف الصالح (رضوان الله تعالى

عليهم) الذين كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ، ثم يدعونه ستة أشهرٍ أخرى أن يتقبله منهم ، فكانت كل أوقاتهم عبادة ، فليحمدِ الله (عز وجل) على توفيقه ، وليسأله سبحانه وتعالى القَبولَ ، فإنَّ الله (عز وجل) لا يُضِيع أجْرَ مَن أحسن عملاً.

وليكن لسان حاله ما قاله سيدنا سليمان (عَلَيْهِ السَّلام): {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩].

والمتأمل في حال كثيرٍ من المسلمين اليوم بعد مضي شهر رمضان يجد أنهم قد انقسموا إلى فريقين :

الأول: **المؤمن الحق الذي أثّر الصيام في أخلاقه وسلوكه** ، فيعلم علم اليقين أن ربَّ رمضان هو ربُّ جميع الشهور والأعوام ، فتجده دائم الصلة بربه (عز وجل) ، فهو عبد ربانيّ وليس عبدًا رمضانيًّا ، فيستمر على عبادته بعد رمضان ، والمحافظة على الصلوات وسائر العبادات ، والبعد عن المحرمات.

والثاني: **حال من لم يستفد من صيامه فلم يؤثر الصيام في خشيته للّه وحسن مراقبته الدائمة له** ، وكأنهم يعتقدون أن الله تعالى رقيب عليهم في رمضان وغائب عنهم في غير رمضان ، {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

يَكْذِبُونَ} [البقرة: ٩ ، ١٠] ، وهؤلاء لم يكن لشهر رمضان أثرٌ في نفوسهم وقلوبهم ، أما المسلم الحق فيستمر على طاعة الله تعالى بعد رمضان ، ويعملُ العمل راجيًا من الله (عز وجل) القبول.

على أن العمل الصالح له علامات قبول يَعرف بها العبدُ أن الله تعالى تقبل منه عمله وطاعته ، ومن هذه العلامات:

المداومة على الطاعة والاستمرار عليها دون تقيد بزمان أو مكان ، فليس للطاعات موسمٌ معينٌ ، وإنما هي مستمرة مع العبد في حياته كلها ، لا تنقضي حتى ينقضي أجله ، وهذا ما أمر الله به رسوله (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩] ، أي: استمر على الطاعة والعبادة حتى يأتيك الموت ، وحين سُئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): "كيف كان عَمَلُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم)؟ هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئًا مِنْ الأَيَّامِ ؟ قَالَتْ: لاَ ، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً" (متفق عليه).

ولمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: "أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ" (مُتفقٌ عَلَيْه) ، ومن هنا يجب على المسلم أن يستمر على الأعمال الصالحة ، وأن يستقيم على الطاعة ، فقد أمر الله (عز وجل) نبيه (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين بالاستقامة وحثَّهم على ملازمتها ، فقال سبحانه: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود: ١١٢] ، وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله ، قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ

أسأل عنه أحدًا بعدك ؟ قال: "قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ" (السنن الكبرى للنسائي) ، فالاستقامة على الطاعة والاستمرار عليها من صفات عباد الله المؤمنين ، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: ١٣] ، ويقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] ، وقال بعض السلف: "إن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئةُ بعدها ، فإذا قبل الله العبد فإنه يوفقه إلى الطاعة ، ويصرفه عن المعصية" (تفسير ابن كثير).

فمن عمل حسنة ثم أتبعها بأخرى كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى ، ومن عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة ، كان ذلك علامة على ردِّ الحسنة وعدم قبولها ، فالطاعة المتقبلة تتبعها مثلها ، وهذا من حسنها وبركتها ، والسيئة تجر إلى مثلها.

ومن علامات قبول العمل الصالح: **حسن الخاتمة** ، وحقيقتها: أن يُوفق الله (عز وجل) العبد قبل وفاته للتوبة من الذنوب والمعاصي ، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير ، ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة ، فالمداومة على الأعمال الصالحة من علامات حسن الخاتمة ، وقد دعانا الحق سبحانه وتعالى إلى السعي الجاد لحسن الخاتمة ، فقال (عز وجل): {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢] ، ودعا

إليها الأنبياءُ والمرسلون ، فالله (عز وجل) يقول عن إبراهيم ويعقوب (عليهما السلام): {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢ ، ١٣٣] ، ويقول على لسان يوسف (عَلَيْهِ السَّلام): {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ" (صحيح مسلم) ، فليحرص كل مسلم عاقل على حسن الخاتمة لكل أعماله ، لتحقيق السعادة الأبدية ، وهي الفوز بالجنة التي أعدها الله (عز وجل) لتكون دار الكرامة لمن حسنت خاتمتهم. ومن هذه النماذج التي أحسن الله ختامها: قصة الرجل الذي قتل مائة نفس ، والذي أخبر عنه النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ ، فَقَال: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ

فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَط. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدمي فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ" (مُتفَقٌ عَليْه) ، فعلينا أن نداوم على الطاعات ، وأن نستمر على ما تعودنا عليه من الأعمال الصالحة ، حتى يتقبل الله منا جميع أعمالنا ، وحتى يحسن الله خاتمتنا.

ومن علامات قبول العمل الصالح: **الخوف من عدم القبول** ، فالله سبحانه وتعالى غني عن طاعاتنا وعباداتنا ، قال (عز وجل): {وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [لقمان: ١٢] ، وقال تعالى: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧] ، والمؤمن مع شدة إقباله على الطاعات ، والتقرب إلى الله بأنواع القربات إلا أنه مشفق على نفسه أشد الإشفاق ، يخشى أن يُحرَم من القبول ، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الآية: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [المؤمنون: ٦٠] أهم الذين

يشربون الخمر ويسرقون! قال: "لاَ ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ"، {أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ} [المؤمنون: ٦١] ، (سنن الترمذي) ، فعلى الرغم من حرصه على أداء هذه العبادات فإنه لا يركن إلى جهده ، بل يستقل أعماله ، ويُظهر الافتقار التام لعفو الله ورحمته ، ويمتلئ قلبه مهابةً ووجلاً ، يخشى أن تُرَد عليه أعماله والعياذ بالله ، وقد كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإتقانه ، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ، ويخافون من رده ، وهؤلاء الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ، يُعطِي ويخشى ألاَ يقبل منه ، يتصدق ويخشى أن تُردَ عليه ، يصوم ، ويقوم ويخشى ألاَ يكتب له الأجر ، فكانوا لقبول العمل أشد اهتمامًا بالعمل ذاته.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

من علامات قبول العمل الصالح: أن يظهر أثره في سلوك المسلم وأخلاقه ومعاملاته مع الخلق ، وفي مراقبة الله (عز وجل) له ، فإن

الطاعات وسيلة لتزكية النفوس ، وتطهير القلوب ، وسلامة الصدور ، وكلّما ازدادَ المسلم طاعةً ازداد عِلمًا وعملاً وهدًى ، قال تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} [النور: ٥٤] ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧] ، فالمجتَمَع الذي يداوم أفرادُه على الطاعات تضعف فيه نوازِع الشرّ ويُحَصَّن من الفساد ؛ لأنَّ العبادات والطاعات تهذّب الأخلاق ، وتقوِّم السلوكَ ، ومن ثم ينصلح حال الفرد ويرقى المجتمع بأخلاقه.

وعلى هذا فلنستعن جميعًا بالله ، ولنداوم على الطاعة والعمل الصالح ، ونخلص لله (عز وجل) العمل ؛ لأن الله تعالى لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا لوجهه ، يقول تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠] .

ونعزم على عدم العودة إلى الذنب مرة ثانية ، ولا نكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة .

قال مجاهدٌ وقتادةُ – رحمهما الله –: "هذا مَثَلٌ لِمَن نقض عهدَه بعد توكيده" (تفسير ابن كثير) ، وهذا مَثَل العمل الذي لا يكون له ثمرةٌ ولا نتيجة إلاَّ التعب والنصب .

ولنا أن نتخيل تاجرًا جمع المال حتى كثُر ماله ، ثم تركه دون حراسة فعرَّضه للسرقة والضياع؟ وهذا حال من عبد الله في رمضان وعمل الصالحات دون أن يؤمنها بالطاعات ويحصنها بالاستقامة .

فهذا هو الإفلاس الحقيقي الذي حذرنا منه النبي (صلى الله عليه وسلم) حين قال: "أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ"؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ .

فَقال: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ" (صحيح مسلم).

كما ينبغي أن نُذَكِّر بصيام الست من شوال التي رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في صيامها بقوله: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ" (صحيح مسلم) ، فمن مَنَّ الله عليه بصيامها نسأل الله تعالى له القبول ، ومن لم يتم صيامها فأمامه فيما بقي من الشهر متسعٌ.

ولنا أن نتساءل: ماذا أفدنا من رمضان ، ومن تلاوة القرآن الكريم فيه؟ هل تخلقنا بأخلاق القرآن ، وأخلاق نبي القرآن (صلى الله عليه وسلم) ، من الرحمة والكرم ، والبر والصلة ، وحسن المراقبة لله (عز وجل) ، وإتقان العمل ، وحسن التعامل مع الخلق ، وحفظ الدماء والأموال والأعراض ، وحب الأوطان والحفاظ عليها ؟ إن كان كذلك فهذا هو الصيام الحق ، وهذا هو الفهم الصحيح للإسلام.

أما إن كان غير ذلك من شطط أو جنوح نحو الفوضى ، أو الفساد والإفساد ، أو التخريب ، أو ترويع الآمنين ، أو سفك الدماء ، فهو ما لا علاقة له بالإسلام ولا بالقرآن ، ولا صام صاحبه ولا استفاد بصيام.

* * *

□مــاذا قبـــل الحـــج ؟

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

ففي هذه الأيام المباركة مقبلون على عبادة من أعظم وأجل العبادات ، فأفئدة المؤمنين الصادقين تهوي إلى حج بيت الله الحرام ، حيث مغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، وإجابة الدعوات ، وسكب العبرات ، وشهود المنافع والخيرات ، فيا لها من طاعة ، ويالها من عبادة تستهوي القلوب والعقول.

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧] ، فالحج فيه مشاهدة منافع دنيوية من تجارة، ومنافع أخروية من مغفرة ورضوان ، قال تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: ٢٧-٢٨].

كما أنّ الحج من أفضل الأعمال ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: "إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "حَجٌّ مَبْرُورٌ" (متفق عليه) ، والحج يهدم ما قبله من الذنوب والسيئات ، فعن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: قَالَ لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟" (صحيح مسلم) ، وعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (متفق عليه) ، والحج المبرور سبب في دخول الجنة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَة (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَ الْجَنَّةُ" (متفق عليه).

ومن عظمة الإسلام ومراعاة التيسير في التكاليف الشرعية ، ومن فضل الله تعالى على عباده أن جعل هذه الفريضة مرة واحدة في العمر ، فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ (اللهِ (صلى الله عليه وسلم)) ، فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَحُجُّوا" فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا

اسْتَطَعْتُمْ" ثُمَّ قَالَ: "ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ" (صحيح مسلم) ، فالحج يجب على كل مسلم مستطيع يملك الزاد والراحلة قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا} [آل عمران: ٩٧].

فعلى من صدقت نيته ووفقه الله (عز وجل) لأداء هذه الفريضة أن يخلص لله (عز وجل) ، لأن العبادات بما فيها الحج لا تكون صحيحة إلا إذا كانت موافقة لشرع الله ، ولا تكون مقبولة إلا إذا كانت خالصة لوجهه (عز وجل) ، قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠] ، قال ابن كثير (رحمه الله): {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ} أَيْ: ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحَ ، {فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا} ، أي: مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللَّهِ {وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ (تفسير ابن كثير) ، وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ ، لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ ، صوابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم).

قال الفضيل بن عياض (رحمه الله): "إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ؛ والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة" (الإخلاص لابن أبي الدنيا) ، ولأهمية الإخلاص في العبادة أمر الله (عز وجل) نبيه (صلى الله عليه وسلم) به فقال: {إِنَّا

أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: ٢] ، أَيْ: فَاعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، فعلى الحاجّ أن يخلص في حجّه لله تعالى ويطهر قلبه من كل ما يخالف الإخلاص وينافيه من رياء وسمعة وعجب وتكبر وغرور ، فعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري (رضى الله عنه) قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ" (متفق عليه) .

فعمل المرائي باطل لا ثواب فِيهِ وَيَأْثَمُ بِهِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ" (صحيح مسلم) ، فالإخلاص عليه مدار قبول جميع الأعمال.

فمن نوى أداء هذه الشعيرة عليه أن يبادر بالتوبة من جميع الذنوب والمعاصي ، فالتوبةُ من أعظم الأعمال ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [التحريمُ: ٨] ، وقد قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هي أَنْ يُقلعَ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَاضِرِ ،

ويندمَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي ، ويعزِم عَلَى أَلاَّ يَفْعَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ الْحَقُّ لِآدَمِيٍّ رَدَّهُ إِلَيْهِ. (تفسير ابن كثير).

فالتوبة سبب للفلاح والسّعادة والمَحبة ، قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور :٣١] ، وهي من أحبِّ الأعمال إلى الله قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢] ؛ بل إنَّه سبحانه يفرح بتوبة التائبين مع أنَّه سبحانه غنيٌّ عن الجميع ، فعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي ، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ" (متفق عليه).

وليعلم الحاج بصفة خاصة والمسلم بصفة عامة أنَّ بابَ التوبة مفتوح مهما بلغ الجُرْمُ وعَظُم الإثمُ ، قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: ٢٥] ، وقال سبحانه: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١١٠] ، وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر :٥٣] ، فعلى المسلم أن يحرص على التوبة قبل الحج ، لأنه يرجو أن يعود مغفورًا له ، وينبغي عليه أن

يجاهد نفسه وهواه والشيطان ، ويقلع عن الذنوب ، ويندم على ما فات ، ويعزم عزمًا صادقًا على عدم العودة إلى الذنوب مرة أخرى ، ويرد المظالم إلى أهلها ، حتى يَفِدَ على الله تعالى وليس عليه شيء.

كما يجب على من أراد الحج أن يتحرى المال الحلال لنفقات الحج والعمرة وسائر العبادات ، وذلك لما له من أثر طيب في قبول العبادة ، فالله (عز وجل) طيب لا يقبل إلا طيبًا فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟" (صحيح مسلم) ، فالمال الحلال والكسب الطيب يشرح الصدر ، ويكسب الطمأنينة ، ويعين على الطاعة ، فالحج عبادة تؤدَّى بالنفس والمال معًا ، فيجب أن يكون المال حلالاً خالصًا.

كما يجب على من أراد الحج وعزم على أداء هذه الشعيرة أن يسارع لسداد ما عليه من ديون وحقوق للآخرين ، فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ

دِرْهَمٌ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ" (صحيح البخاري) ، فلقد حذر الإسلام من التهاون في أداء الدَّين ، أو التأخير في قضائه، أو التساهل وعدم الاكتراث بأدائه ، فمن عزم على قضاء الدين ورد الحقوق إلى أصحابها أعانه الله ويسّر له ، فَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَها يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللَّه" (صحيح البخاري).

وهذا لما للدَّين من خطورة على الأموال وما يخلّفه في النفوس من ضغائن وأحقاد ، فعلى من يريد الحج أن يُعجل بقضاء الديون ورد المظالم إلى أهلها ، فهذا أبرأ للذمة ، وأرجى للقبول ، وينبغي على من يريد الحج أن يتنبَّه إلى ما يُحبط العمل أو يمنع قبوله: كالمشاحنة والقطيعة ، فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ (رضى الله عنه): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ" (متفق عليه) فالهجر قد يكون سببًا لتأخير – أو حجب – المغفرة والثواب من الله تعالى وقبول الأعمال ، فعنْ أَبِي هُرَيْرَة (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "تُفَتَّحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ فَيُغْفَرُ فِيهِمَا لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ المُهْتَجِرَيْنِ ، يُقَالَ: رُدُّوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا" (صحيح مسلم) ، فالقطيعة لا تتناسب مع أخلاق الإسلام بصفة عامة وأخلاق الحج بصفة

خاصة ، وحذر الإسلام من تعاطي أسباب القطيعة والفرقة وحثهم على الصبر فقال تعالى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦] ؛ ولأنّ النفوس في حال الخصام والتنافر محكومة بنوازع الانفعال والعناد ، والإصلاح يقضي على كل هذا ويُليِّن النفوس المتصلبة ويحررها من دوافع التأبّي والعناد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

لقد جعل الإسلام الصلح خيرًا في كل أحيانه فقال سبحانه وتعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: ١٢٨] وجعل الكلام فيه من خير الكلام وجعل له أعظم الأجر فقال (عز وجل): {لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤] فمن أراد الثواب الجزيل وراحة الضمير ، وقبول العبادة فليحلم على الجاهل ، وليعفُ عن المعتدي وليقبل الصلح {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ} [الشورى:٤]، هذا بالنسبة لمن لم يؤد فريضة الحج من قبل

وعزم على أدائها هذا العام ، وأمّا من أدى فريضة الحج ويريد أن يحج نافلة فنقول له إنّ هناك ما هو أولى من حج النافلة وعمرة النافلة مثل: قضاء حوائج المسلمين.

فإن الناظر إلى واقع المسلمين الآن يجد منهم الفقير الذي لا يجد ما يسد جوعه ، ناهيك عن ملبسه ومسكنه ، والمريض الذي لا يجد دواءه ، والأرامل ، واليتامى والعوانس ، والضعفاء ، والعجزة ، ومن لا عائل لهم ، هؤلاء وغيرهم هم أحق بقضاء حوائجهم والقيام على شئونهم.

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها على أن التقرب إلى رب العالمين والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأن أضدادها من الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استُجْلِبت نعمُ الله ، واستُدفعت نقمه بمثل طاعته والإحسان إلى خلقه فقضاء حوائج الناس والقيام على شئونهم من خلق الأنبياء والرسل ، فأشرف الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) تصف لنا السيدة خديجة (رضى الله عنها) خُلقه فتقول: "كَلاَ ، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ" (متفق عليه).

وحث النبي (صلى الله عليه وسلم) على قضاء حوائج الناس وتنفيس كربهم ، والتيسير على معسرهم والستر عليهم فمن فعل هذا

فهو موعود بالإعانة ، مؤيد بالتوفيق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ (صحيح مسلم) ، وعلى هذا النهج القويم سار الصحابة والصالحون ، فقد كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يتعاهد الأرامل ، يسقي لهن الماء ليلاً ، فيجب علينا أن نسير على هذا المنهج الإسلامي المستنير الذي رسمه لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) والأئمة الأعلام من بعده ، إن قضاء حوائج الناس لا يخرج عن كونه فرض عين أو فرض كفاية ، ولا شك أن الفرض والواجب عينيًا كان أم كفائيًا مقدم على سائر النوافل لا على حج النافلة وتكرار العمرة فحسب ، كما أن قضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم ليس مجرد نافلة، إنما هو واجب شرعي ووطني ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ" (مسند أحمد) ، ويقول الحق سبحانه: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون:١-٣] ، وهو مقدم على ألف حجة وحجة بعد حجة الإسلام التي هي حجة الفريضة ، ومن ألف عمرة نافلة.

* * *

العشر الأول من ذي الحجة.. مناسك وفضائل

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} [التوبة: ٣٦] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فمن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل لهم مواسم للخيرات ، تضاعف فيها الحسنات ، ويستكثرون فيها من الأعمال الصالحات ، هذه المواسم لها مزية ليست لغيرها من الأوقات ، حيث يتجدد فيها نشاط العبد فيسارع إلى الخيرات ليتقرب من رب الأرض والسموات.

وقد فضَّل الله تعالى بعض الأزمنة على بعض ، ففضّل بعض الشهور – وهي الأشهر الحرم – على غيرها من الشهور ، فقال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} [سورة التوبة: ٣٦]. وفضَّل شهر رمضان على سائر الشهور ، وفضَّل ليلة القدر على سائر الليالي ، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [القدر: ١– ٣] ، كما فضَّل الله – تبارك

وتعالى – بعض الأيام على بعض ، ففضل العشر الأوَل من شهر ذي الحجة على سائر الأيام ، وجعل العمل الصالح فيها أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا من العمل فيما سواها من الأيام ؛ فهي أيامٌ شريفةٌ فاضلةٌ عالية القدر ، وهي أعظم الزمن بركةً ؛ إذ لها مكانةٌ عظيمةٌ عند الله تعالى ، فهي عَشْرٌ مباركاتٌ كثيرةُ الحسنات ، عالية الدّرجات ، متنوِّعة الطَّاعات ، فهي أفضل أيام العام كله ، حيث يجتمع فيها حجاج بيت الله الحرام في أطهر بقعة من الأرض ، حول الكعبة المشرفة يطوفون ، ويتسابقون إلى الطاعات ، ويتنافسون في الخيرات ، وليتزودوا بخير زاد عملاً بقول الله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧].

تلك الأيام المباركة عرف الإسلام قدرها ، وأمر المسلمين أن يسارعوا في الخيرات رغبة في التقرب إلى الله (عز وجل) الذي يجزى الحسنة بعشر أمثالها ، قال سبحانه: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الأنعام:١٦٠].

ومن فضائلها:

أن الله تعالى أقسم بها في كتابه الكريم ، ولا يقسم الله تعالى إلا بعظيم ، ولا يجوز لخلقه أن يقسموا إلا به ، فالقَسَم بها يدلُّ على عظمتها ورفعة مكانتها وتعظيم الله تعالى لها ، وتنويهًا بشأنها وفضلها ، وإرشادًا لأهميتها ومكانتها ومنزلتها ، قال سبحانه وتعالى:{وَالْفَجْرِ *

وَلَيَالٍ عَشْرٍ* والشفع والوتر} [الفجر:١ – ٣] ، والصحيح الذي عليه جمهور المفسرين أن الليالي العشر هي عشر ذي الحجة ، وقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال في تفسير هذه الآيات (العشر: عَشْرُ النَّحْرِ ، وَالْوَتْرُ يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَالشَّفْعُ يَوْمُ النَّحْرِ) (السنن الكبرى للنسائي).

إنَّ الله تعالى نصَّ في كتابه العزيز على ذكره فيها ؛ تعظيمًا لله تعالى وإعلامًا بفضيلة هذه العشر ، وإظهارًا لشعائرها ، حيث سماها الأيام المعلومات ، فقال تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} [الحج:٢٧]. وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): "هي أيام العشر" ، فالأيام المعلومات هي العشر في قول أكثر السلف والعلماء.

إنها أفضل أيام الدنيا كما نص بذلك حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: "مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ، قَالُوا: وَلا الْجِهَادُ؟ قَالَ: وَلا الْجِهَادُ ، إلا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ" (صحيح البخاري).

ومن فضائلها: أنها مكان لاجتماع العبادات فيها ، فالصلاة ، والصيام ، والدعاء ، والصدقة ، والجهاد ، وقراءة القرآن ، وذِكْر الله – تعالى – وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عنِ المنكر ، وغيرها منَ القُرُبات – هي في عشر ذي الحجة أفضل فيها من غيرها ؛ لحديث ابن عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – عنِ النبي (صلى الله

عليه وسلم) قال: "ما من عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ الله (عز وجل) ولا أَعْظَم أَجْرًا من خَيْرٍ يعمله في عَشْرِ الأَضْحَى" قِيلَ: ولا الجِهاد في سبيل الله؟ قال: "ولا الجِهَاد في سبيل الله (عز وجل) إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فلم يَرْجِعْ من ذلك بِشَيْءٍ" (شعب الإيمان للبيهقي).

ونحن نعيش في ظلال هذه الأيام المباركة من شهر ذي الحجة ينبغي علينا أن نغتنمها ولا نضيعها ، وأن نتسابق إلى الخيرات فيها ، وأن نشغلها بالعمل الصّالح ، فالعمل الصالح فيها أحبّ إلى الله سبحانه وتعالى مما سواها من الأيام ، لقول رسولنا (صلى الله عليه وسلم): "مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ" قَالُوا: وَلاَ الْجِهَادُ؟ قَالَ: "وَلا الْجِهَادُ ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ" (صحيح البخاري).

ومن هذا الحديث يتضح أن هذه الأيام أفضل أيام السنة كلها ، وأن العمل الصالح فيها – أيًّا كان نوعه – أفضل فيها من غيرها ، وأن العامل في هذه العشر أفضل من المجاهد في سبيل الله الذي رجع بنفسه وماله.

ويستحب الإكثار من العبادات من صلاة وصيام وذكر في هذه الأيام ، وآكدها صوم يوم عرفة لغير الحاج ، وقد خص النبي (صلى الله عليه وسلم) صيام يوم عرفة من بين أيام عشر ذي الحجة بمزيد عناية ، وبيّن فضل صيامه ، فقد ثبت عن أبي قتادة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سئل عن صوم يوم عرفة فقال: "يُكَفِّرُ

السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ" (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ التي بَعْدَهُ" (صحيح مسلم).

فالصيام من أفضل الأعمال الصالحة ، وقد أضافه الله إلى نفسه لعظم شأنه وعلو قدره ، فقال سبحانه في الحديث القدسي: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَام ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ" (متفق عليه).

فللصوم فضل عظيم وثواب عميم ، وقد صح في الحديث "مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبيلِ اللهِ إلاَّ بَاعَدَ اللهُ بِذلِكَ اليَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا" (متفق عليه) وعليه فيسن للمسلم أن يصوم التسع ؛ لأنها من العمل الصالح.

التكبير والتحميد والتهليل والذكر:

ومن الأعمال التي ورد فيها النص على وجه الخصوص الإكثار من ذكر الله عموما ومن التكبير خصوصًا لقول الله سبحانه وتعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: ٢٨] ، وجمهور العلماء على أن المقصود بالآية: أيام العشر.

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلاَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ" (مسند أحمد). وقال البخاري: "كان ابن عمر وأبو هريرة (رضي الله عنهما)

يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما" ، وقال: "وكان عمر يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ، ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرًا" ، "وكان ابن عمر (رضي الله عنهما) يكبِّر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه ، وفي مجلسه وممشاه تلك الأيام جميعًا" (صحيح البخاري معلقًا).

ويستحب للمسلم أن يجهر بالتكبير في هذه الأيام ويرفع صوته به في المساجد والمنازل والطرقات والأسواق وغيرها ، يجهر به الرجال ، وتسر به النساء ، إعلانًا بتعظيم الله تعالى ، وذلك من أول يوم من أيام ذي الحجة ويستمر إلى عصر آخر يوم من أيام التشريق ، وهو من السنن المهجورة التي ينبغي إحياؤها في هذه الأيام .

وأما التكبير الخاص المقيد بأدبار الصلوات المفروضة ، فيبدأ من فجر يوم عرفة ويستمر حتى عصر آخر يوم من أيام التشريق ؛ لقوله تعالى: {واذكروا الله في أيام معدودات} [البقرة: ٢٠٣] ، ولقوله (صلى الله عليه وسلم): "أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ ، وَشُرْبٍ" (صحيح مسلم).

الصدقة: وهي من جملة الأعمال الصالحة التي يستحب للمسلم الإكثار منها في هذه الأيام ، وقد حث الله (تعالى) عليها ، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة:٢٥٤] ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ" (صحيح مسلم).

وبالنظر إلى هذه الأيام – عشر ذي الحجة – نجد أنها حظيت بهذه المكانة وتلك المنزلة ؛ لاجتماع أمهات العبادات فيها ، وهي الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، ووقوع غالب مناسك الحج فيها ، ولا يتأتي ذلك في غيرها ، ففيها يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ، وفيها يوم عرفة ، وهو اليوم التاسع من ذي الحجّة ، وهو يومٌ معروفٌ بالفضل وكثرة الأجر وغفران الذنب .

فعن جَابِرٍ(رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي ، أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِّينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "فَمَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ" (صحيح ابن خزيمة).

وفي صحيح مسلم عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَة ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي الْمَلَائِكَةُ" (صحيح مسلم).

وفيها كذلك يوم النّحر ، وهو اليوم العاشر من ذي الحجّة ، وهو أفضل الأيام ، وفيه معظم أعمال النُسُك: من رمي الجمرة ، وحَلْق الرّأس ، وذبح الهَدْي ، والطَّواف ، والسّعي ، وصلاة العيد ، وذبح الأُضحية ، واجتماع المسلمين في صلاة العيد ، وتهنئة بعضهم بعضًا ، ففي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه

وسلم): "إِنَّ أَعْظَمَ الأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمُ النَّحْرِ ، ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ وَهُوَ الَّذِي يَلِيهِ" (سنن أبي داود).

فالسعيد من اغتنم هذه الأيام ، وتقرب فيها إلى مولاه بالطاعات ، حتى يكون مشاركًا للحجيج في أعمال البر والطاعة ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْحَرَ فِي هِلاَلِ ذِي الْحِجَّةِ ، فَلاَ يَأْخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ" (مسند أحمد).

إنها قمة المشاركة للحجيج في العبادة والطاعة ، حيث بين النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث أن المسلم الذي لم يُقَدَّر له الحج فلا يحرم الثواب من المشاركة للحجيج في أعمالهم ، من عدم قص الشعر ، وتقليم الظفر ، تشبها بالمحرمين حتى ينتهوا من صلاة العيد وذبح الأضاحي.

والأضحية سنة مؤكدة فعلها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحثَّ على فعلها لما فيها من التقرب إلى الله (عز وجل) بإراقة الدماء ، ولما فيها من سدٍّ لحاجة الفقراء والمساكين ، وفيها إحياء لسنة أبينا إبراهيم (عليه السلام) ، فهي سنة مؤكدة على كل مسلم حاجًا أو غير حاج ذكرًا أو أنثى ، ينبغي لكل قادر موسر ألا يدعها ، لأنها شعيرة عظيمة من شعائر الدين الإسلامي الحنيف قال الله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: ٣٧] ، وقال

تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢] ، و عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قال: "ضَحَّى النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ وَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا" (صحيح مسلم) ، وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما): "أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نَحَرَ يَوْمَ الأَضْحَى بِالْمَدِينَةِ" ، قَالَ: "وَقَدْ كَانَ إِذَا لَمْ يَنْحَرْ يَذْبَحُ بِالْمُصَلَّى" (سنن النسائي).

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

والأضحية من أفضل الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه في هذا اليوم ، فعن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ ، إِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلاَفِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا" (سنن الترمذي).

ويجب على المسلم الذي يريد أن يُضحي ويحرص على اتباع السنة أن يتأكد من سن الأضحية عند شرائها وذلك بسؤال أهل

الخبرة ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "لاَ تَذْبَحُوا إِلاَّ مُسِنَّةً ، إِلاَّ أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ" (صحيح مسلم) .والجَذعة: ما استكمل سنة ولم يدخل في الثانية.

كما اشترط الإسلام أن تكون الأضحية خالية من العيوب ، فقد روى أبو داود عن البراء بن عازب أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "أَرْبَعٌ لاَ تَجُوزُ في الأَضَاحِي: الْعَوْرَاءُ بَيِّنٌ عَوَرُهَا ، وَالْمَرِيضَةُ بَيِّنٌ مَرَضُهَا ، وَالْعَرْجَاءُ بَيِّنٌ ظَلْعُهَا ، وَالْكَسِيرُ التي لاَ تَنْقَى" قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّى أَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ في السِّنِّ نَقْصٌ ، قَالَ: "مَا كَرِهْتَ فَدَعْهُ ، وَلاَ تُحَرِّمْهُ عَلَى أَحَدٍ" (سنن أبي داود).

هذا وقد وجه الإسلام إلى الإحسان في يوم الأضحية إلى الفقراء والمحتاجين .

وإن من الأفضل لمن وسع الله عليهم أن يتصدق بالأضحية كلها فهذا أقرب للتقوى وأعظم للثواب.

وقد أجاز الإسلام للمضحي أن يأكل منها وأن يهدي لقرابته وأصدقائه ، أو أن يجعل ذلك أثلاثًا.

وكل ذلك مقبول إن شاء الله كما كان يفعل النبي (صلى الله عليه وسلم) ففي حديث عائشة (رضي الله عنها) لما ذَبحَ الرسول (صلى الله

عليه وسلم) الشّاة وأمر بالتصدق بها جميعًا ، فلما سَأل عائشة فقالت: ذَهَب كلها إلا الكَتِف ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "بَقِيَ كُلُّهَا غَيْر كَتِفِهَا" (سنن الترمذي).

كما نؤكد أن العمل الصالح لا يقف عند حدود العبادات ، وإنما يشمل كل ما فيه نفع الفرد والمجتمع ، من الأخلاق الكريمة ، والعمل والإنتاج ، والبذل والعطاء ، والتكافل والتراحم.

وإذا كنا قد عرفنا عظمة هذه الأيام وفضلها وشرفها وفضل العمل الصالح فيها .

فلنحرص على الخير في هذه الأيام حتى نكون أهلاً بقبول دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنا ، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) دعا لنا من غير أن يرانا.

ففي حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: لما رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) طيب النفس ، قلت يارسول الله ، ادع الله لي ، فقال: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ ، وَمَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ" ، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك ، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أَيَسُرُّكِ دُعَائِي"؟ فقالت: وما لي لا يسرني دعاؤك ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "وَاللهِ إِنَّهَا لَدُعَائِي لأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلاَةٍ" (صحيح ابن حبان) ، فحَرِيٌّ بالمسلم أن يشكرَ الله (تعالى) على فضلها وفضْل العمل الصالح فيها .

وأن يشكرَه (عز وجل) على بُلُوغها وهو في أمْنٍ وعافية ، وأن يعرف لهذه الأيام فضلها ، ويقدر لها قدرها ، ويحرص على الاجتهاد فيها بالأعمال الصالحة.

* * *

الحج بين الرحمة والتيسير

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القَائِلِ في كِتَابهِ الكريمِ: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} [الحج: ٢٧ ، ٢٨] ، وأشهدُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدهُ لا شَريكَ لهُ ، شرع الدينَ ويسَّرهُ فقال سبحانه: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا ونَّبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ ، القائِلُ في الحديث الشريف: "مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (متفق عليه) ، فاللهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ، ومَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَسَلَكَ طَرِيقَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعـد:

فَمِن نعَمِ الله (عز وجل) على عبادِهِ المؤمنينَ أنْ جعَلَ لَهُم مواسِمَ للخيراتِ والرَّحَماتِ ، ومن هذِهِ المواسِمِ العظيمَةِ ما نحن مُقبلونَ عليه من أيام مباركةٍ يستعدُّ فيها الحجيجُ لزيارةِ بيت الله الحرام لأداء فريضَةِ الحجِّ ، حيث تتنزَّلُ الرحماتُ والبركاتُ ، وتتآلفُ القلُوبُ ، وتصفُو النفوسُ ، وتَقْوىَ الصِّلةُ بينَ الإنسانِ وربِّه ، قال سبحانه وتعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ

التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧] ، ويتجلى تكريمُ اللهِ تعالى للحجيجِ بأنْ جعَلهُم ضيفَهُ وزُوارَهُ ، إن دَعَوهُ أجابَهُم ، وإن سألُوهُ أعطَاهُم ، وحقٌّ على المزُورِ أن يُكرِمَ زائرَهُ ، يقول النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "الْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللَّهِ ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ" (سنن ابن ماجه).

والحج بابٌ واسعٌ من أبوابِ الرَّحْمةِ والمغفِرةِ ، وفيهِ من التَّيسِيرِ والسّعَةِ ما لا يوجَدُ في غيرِهِ من العباداتِ ، وإذا كان الإسلامُ كلُّه قائمًا على التَّيسِيرِ ورَفعِ الحَرجِ ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] ، ويقول: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] ، فإنَّ هذا التيْسِيرَ في الحجِّ أولى وألزَمُ ، فمَا يَسَّرَ نَبيُّنَا (صلى الله عليه وسلم) في شيء أكْثرَ من تيْسِيرهِ على حُجَّاجِ بيتِ اللهِ (عز وجل) في قَولَتهِ المشْهُورَةِ: "افْعَلْ ولا حَرَج" (متفق عليه).

وتتَمَثَّلُ مظاهِرُ رحمَةِ اللّهِ (تعالى) وتَيْسِيرِهِ في الحجِّ في أمورٍ كثيرَةٍ:

منها: أنَّ اللّه تعالى فرضَهُ في العُمْر مرَّةً واحِدَةً ، حيث قَالَ نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم): "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا" ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا

اسْتَطَعْتُمْ" (صحيح مسلم) ، وفي رواية: "الْحَجُّ مَرَّة ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ" (مسند أحمد).

ومنها: **أن الحجَّ لم يُفرَض إلا على المستَطِيعِ** ، والاستطاعَةُ هنا تعْني القُدْرةُ الماليَّةُ والبدنِيَّةُ معًا ، لأنَّ دواعِيَ المَشَقَّةِ في مناسِكِ الحجِّ مُتَيَقَّنَةٌ.

فوَجَبَ التأكِيدُ على شَرْطِ الاستِطاعَةِ ، فهو فرضٌ على المستطيعِ فَقَط ، حيثُ يقولُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٩٧].

ومنها: **أن الحجَّ يغفرُ ما قبلَهُ منَ الذُّنُوبِ والسَّيِّئَاتِ** ، ويَفتَحُ صفْحةً جَدِيدَةً بَيضاءَ نقِيَّةً لِصَاحِبِهِ ليبْدَأَ عَهدًا جَدِيدًا مع خالِقِهِ ، فعَنْ عمرِو بنِ العاصِ (رضي الله عنه) قال: قَالَ لي رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟" (صحيح مسلم).

ومنها: **أن الحجَّ المبرُورَ ثوابُهُ الجنَّةُ** ، يقُولُ نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم): "الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَ الْجَنَّةُ" (متفق عليه).

كذلك من مظاهِرِ الرحمَةِ والتيْسِير في الحَج: أنْ أُذِنَ للضعَفَاءِ بالنزولِ من مزدلِفة إلى مِنى قَبلَ الناسِ حتى لا يُزاحِمَهُمُ الأقْوِياءُ أثناءَ دفعِهِم إلى مِنًى ، فالضعيفُ أميرُ الرَّكْبِ ، "وَكَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) يُقَدِّمُ ضَعَفَةَ أَهْلِهِ فَيَقِفُونَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِالْمُزْدَلِفَةِ بِلَيْلٍ فَيَذْكُرُونَ اللهَ مَا بَدَا لَهُمْ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ قَبْلَ أَنْ يَقِفَ الإِمَامُ وَقَبْلَ أَنْ يَدْفَعَ..." (متفق عليه).

ومنها: **جوازُ النيـاَبَةِ في الحج عن الغَـير بشرْطِ أن يكونَ قد حج عن نفسِهِ** ، وكذلك النيابة في رمي الجمرات تيسيرًا على ذوي الأعذار من المرضى وكبار السنّ والنّساء ، وتخفيفًا للزّحام عن الجميع ، فالمشقّة قائمةٌ للضّعيف والقـويّ ، واقعـةٌ عليهـما معًا ، غير أن القـويّ يحتمل منها ما لا يحتمله الضّعيف

ومن مظاهِرِ التيسِيرِ في الحج: **رَفْعُ الحَرَجِ في ترتيبِ أعمَالِ يَومِ النّحْرِ** ، فالهدي النّبويّ العمليّ أن يأتي الحاجّ بأعمال الحجّ في يوم النّحر على الترتيب: فيرمي الجمرات ، ثم ينحر الهدي ، ثم يحلق أو يقصّر ، ثم يطوف بالبيت ، ويسعى بين الصّفا والمروة ، غير أنّ اجتماع الحجيج على عمل واحد في يوم واحد وساعة واحدة فيه من المشقّة والعنت ما فيه ، فرفع الله عنهم الحرج والضّيق ، وبيّن على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) أنّ من قدّم بعض هذه الأعمال على بعض فلا حرج عليه ولا إثم ، فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلاَّ قال: "افْعَلْ ، وَلاَ حَرَجَ" (متفق عليه) ، وهذا ما أَكَّد عليه نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) من ضرورَةِ التَّيْسِيرِ ، واستنكَارِ كُلِّ أشْكالِ التَّشدُّدِ في الحجِّ ؛ فعنْ أنسٍ (رَضِي الله عَنهُ) أنَّ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) رأى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ – يعتمد عليهما –

قَالَ: "مَا بالُ هَذا؟" قالُوا: نَذَر أنْ يَمْشِي ، قَالَ: "إنَّ الله عَنْ تَعْذِيبِ هَذا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ ، وأَمَرَهُ أنْ يَرْكَبَ" (متفق عليه).

فحَريٌّ بكلِّ من قَصَدَ البيْتَ الحَرامَ أن يأخُذَ بالأيْسَرِ لنَفْسِهِ ولحَالِه في الحجِّ ، وليجعَلَ منَ اليُسْرِ منهَجَ حياةٍ لهُ في الحجِّ وغيرِهِ ، فاليُسْرُ دائمًا وأبَدًا لا يأتِي لصَاحِبِهِ إلا بكلِّ خَيْرٍ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وليُّ الصَّالحينَ ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُه ، اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وباركْ عليهِ وعلَى آلِه وصحْبِهِ ومنْ تبعَهُم بإحسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

فمع ما للحج من فضلٍ وخيرٍ وبركة إلا أن الأمور تقدر بقدرها ، ففي أحوال الرغد المعيشي لا بأس بتكرار الحج والعمرة ، بل هو خير وأمر مستحب ، غير أنه لا يعدو كونه نافلةً وتطوعًا لا يتقدم على فروض الكفايات ، فإن قضاء حوائج الناس والقيام بفروض الكفايات أولى من حج النافلة والتطوع ، فمن رزقه الله (عز وجل) حج بيته الحرام ، وتيسر له الحج مرة أخرى ، فالأولى أن يوجه نفقات الحج لمساعدة الفقراء والمساكين ، وتوفير ما يحقق للناس حياةً آدميةً كريمةً من المطعم والملبس والمسكن والدواء والتعليم ، وغير ذلك مما يحفظ

لهم كرامتهم ويوفر لهم سبل الرقي والتقدم ، فذلك أولى من تكرار الحج والعمرة ومقدمٌ عليهما ، فقَد قَدَّمَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) قضاءَ حوائجِ الناسِ على الاعتكافِ في مسجدِهِ ، حيثُ قالَ: "أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ – شَهْرًا" (المعجم الكبير للطبراني).

وأخيرًا فإن قضاء حوائج الناس والقِيام بمتطلبات حياتهم ليس مجرد نافلة ، إنما هو واجب شرعي ووطني.

* * *

الحج مدرسة أخلاقية

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القَائِلِ في كِتَابهِ الكريمِ: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧] ، وأشهدُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدهُ لا شَريكَ لهُ ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كلِّ شيء قدير ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا ونَّبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ ، القائِلُ في الحديث الشريف: "مَنْ حَجَّ ، فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (صحيح البخاري) ، اللهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ، ومَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَسَلَكَ طَرِيقَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن جميع العبادات تحمل في مضامينها قيمًا ومعانيَ أخلاقية سامية ، ذلك لأن الإسلام قد ربطها جميعها بمكارم الأخلاق ، فما من عبادة شرعها الإسلام من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ، إلا ولها أثر يظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي ، بل إن هذا الأثر يتعدى الفرد إلى المجتمع ، فالإسلام ليس طقوسًا جوفاء لا علاقة لها بالواقع ، ولا أثر لها في السلوك ، إذ لا يعقل أن يخرج العابد من عبادته ليغُشَّ أو يحتكر ، أو يؤذي جاره ، أو يكذب ، أو يخون ، أو يخلف العهد أو الوعد ، إنما شرعت العبادات في جميع الأديان لترتقي بسلوكيات الإنسان ، وتسمو بأخلاقه.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، حيث يقول الحق سبحانه: {اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُون} [العنكبوت:٤٥] ، فالصلاة إن لم تؤثر في صاحبها وتمنعه عن الفحشاء والمنكر فلا أثر لها ولا ثمرة ، بل إنها قد تكون وبالاً على صاحبها ؛ لأن صلاته وسوء سلوكه تكون عامل صدٍّ عن الدين لا دعوة إليه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلاَ بُعْدًا" (المعجم الكبير للطبراني) .

وكذلك سائر العبادات ، تسمو بتزكية النفس ، والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق ، فالزكاة طهرة لنفس الغني من البخل والشح والأنانية ولنفس الفقير من الحقد والبغض والحسد ، حيث يقول الحق سبحانه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣]

كذلك يعمل الصيام على تهذيب الأخلاق والسلوك ، فمن خلاله يتعود المسلم على ضبط أخلاقه وغرائزه ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

فالصوم الحقيقي لابد وأن يترك أثرًا في سلوك المسلم وأخلاقه ، وهذا ما أكد عليه نبينا (صلى الله عليه وسلم) حين قال: "وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ..." (متفق عليه).

وأما الحج الذي نحن بصدد الحديث عنه فهو مدرسة لتعليم الفضائل والأخلاق الإسلامية ، وتهذيب السلوك الإنساني القويم ؛ يتربى فيها المسلم على تقوى الله ، والطهر ، والعفاف ، والتحكم في غرائز النفس وشهواتها ، والتحلي بمكارم الأخلاق من الإيثار لا الأثرة والاستغناء والتعفف لا السؤال والابتذال ، وأن يوسع على نفسه وعلى أهله وعلى الفقراء والمحتاجين لا أن يكون بخيلاً شحيحًا.

كما أنه يربي في المسلم الدقة في الأقوال والأفعال ، والالتزام والانضباط.

فالحاج من خِلال حَجِّه يتوجب عليه أن يُطبِّق عمليًّا ما ربَّاه عليه الإسلام من القيم والأخلاق ، منها الحِلم ، والصبر ، والعمل ، والكرم ، والبذل ، والتضحية ، والإيثار ، والبِر ، والرحمة ، ومساعدة الضعفاء ، ونشر السلام والتواضع ، وغير ذلك من أخلاق الإسلام التي تغرسها فريضة الحج في نفوس المسلمين ؛ ليخرج الحاج من مدرسة الحج وقد تحققت له مضامينه الأخلاقية والسلوكية.

لأجل ذلك ربط القرآن بين أداء الحج واستقامة السلوك الإنساني؛ فقال سبحانه: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (متفق عليه)

والحج سلام كله ، فالحاج لا يخاصم ، ولا يجادل ، ولا يهيج صيدًا ولا ينفره أو يقتله ، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: ٩٥] ، ولا تقتصر المسالمة على الإنسان والحيوان فحسب ، بل تمتد إلى النباتات ، فالحاج مأمورٌ حتى بمسالمة النبات ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ ، لا يُعْضَدُ شوْكُه – أي: لا يُقطع – ولا يُنفَّرُ صَيدُه ، ولا يَلْتَقِطُ لُقطَتَهُ إِلاَّ مَنْ عَرَّفها" (متفق عليه)

إنه تدريب للمسلم على أن يَسْلَمَ من أذاه البشرُ والشجرُ والحجرُ وقد أخبرنا (صلى الله عليه وسلم) بأن المسلم هو "مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ" (مسند أحمد).

فلا يكون الحج مبرورًا يعود الحاج منه كيوم ولدته أمه إلا إذا اجتنب صاحبه الرفث والفسوق والجدال.

فعلى الحاج أن يتجنب الغيبة والنميمة والرفث والفسوق والعصيان والجدل ، وكلَّ ما من شأنه أن ينال من حجه ، وليحرص على اغتنام هذه الفرصة التي قد لا تواتيه مرة أخرى.

وقد لا يعوضها إن ضيعها ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لاَ يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا". (المعجم الأوسط للطبراني) ، فليتحلَّ الحاج بمكارم الأخلاق قبل الحج ، وأثناء الحج ، وبعد الحج ،

وليدرك أن قبول حجِّه مرهون بمدى تخليه عن مساوئ الأخلاق وتحليه بمكارمها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وليُّ الصَّالحينَ ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُه ، اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وباركْ عليهِ وعلَى آلِه وصحْبِهِ ومنْ تبعَهُم بإحسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

من علامات قبول الطاعة والعبادة أن تترك أثرًا بيِّنًا في أخلاق وسلوك صاحبها ، يقول الحق سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]

والمتأمل في مقاصد العبادات يجد أن الغاية المنشودة منها: تقوية الصلة بين العبد وربه ، وتزكية النفس البشرية ، وتهذيب السلوك ، والارتقاء بالخلق الإنساني ، فإذا لم تؤثر العبادة في خلق الإنسان وتهذب من سلوكه فلا قيمة لها ولا ثمرة لها في الآخرة ، فنبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول: "أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ ، وَيَأْتِي

قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (سنن الترمذي) ، ولما سئل (صلى الله عليه وسلم): يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا ، وَصِيَامِهَا ، وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ: "هِيَ فِي النَّارِ" (مسند أحمد).

ولكي ينهل الحاج من مدرسة الحج فتتحقق هذه السلوكيات الطيبة وينعم بالقبول فلابد له من أن يتحرى المال الحلال لنفقات الحج ، فقد ذَكَرَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) "...الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟" (صحيح مسلم).

* * *

الحـج ووحـدة الأمـة

الحمد لله رب العالمين ، القائلِ في كتابه العزيز: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُو اْنِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران ١٠٣] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـد:

فتأتي فريضة الحج كلَّ عام لتذَكِّر الأمة بثوابتها وأصولها ، ومن بين هذه الثوابت والأصول أنها أمة واحدة ، واحدة في عقيدتها ، وواحدة في وجهتها ، وواحدة في قبلتها ، وواحدة في غايتها ، قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٩٢] ، وقال تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون:٥٢].

فبيَّن ربنا سبحانه أن ديننا واحد وشريعتنا واحدة ، وفى خاتمة الآية الأولى قال تعالى: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٩٢] ، فكأن من أصول الدين وثوابت هذه الأمة وحدتها وتماسكها لأنها موحَّدَة في عباداتها ، وفى خاتمة الآية الثانية قال تعالى: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}

[المؤمنون:٥٢] ، إذ وحدة الأمة وتمسكها بثوابتها والحفاظ على هويتها يحتاج إلى ركيزة أساسية تقوم عليها ألا وهي: التقوى ، التي هي إخلاصٌ وتجرد لله تعالى في العبادة والمعاملة والسلوك.

ويأتي موسم الحج ليؤكد على هذا المعنى ، معنى الوحدة التي تحتاج إلى الإخلاص والتقوى قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧].

إن وحدة الأمة واعتصامها بدينها والحفاظ على ثقافتها هو سر بقائها ودعامة قوتها والسبيل إلى نهضتها ، ولذا كانت دعوة الإسلام إلى الحفاظ على هذا التماسك ونبذ الخلاف والتفرق والتشرذم.

وقد جاءت هذه الدعوة صريحة واضحة في قول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُو اْنِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران ١٠٣].

وكانت دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) للأمة بلزوم جماعة المسلمين وعدم الفرقة والتنازع ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ"

(سنن الترمذي) ، وضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلاً للأمة في تماسكها وتآزرها فقال: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" (متفق عليه).

وأكثر ما تتجلى فيه روح الأخوة ، وتزيد أواصر المحبة بين أبناء الأمة: شعيرة الحج التي تعتبر خُمُسَ الإسلام وخامسَ الأركان كما قال النبي العدنان (عليه الصلاة والسلام) ، كما أنها تجمع باقي أركان الإسلام في أسمى معانيها ، وتحلق بجموع المسلمين في سماء من الرقي ، تفيض بالطهر والإيمان ، وتنأى بهم عن الرجس والبهتان ، والإفك والطغيان ، فيكونون مع الرحمن بالقلوب والأبدان ، تذوب الفوارق فيما بينهم ، وتعلوهم روح العدل والمساواة ، ولا تخضع الجباه إلا لله تعالى.

أما كون الحج يجمع أركان الإسلام فيبدو في مناسكه ، فالطواف بالبيت في اتجاه واحد يتفق مع دوران الأرض حول نفسها ومع دورانها في محورها ، وكأن القلوب قد اتسقت حركتها مع حركة الكون في طواف واحد لرب واحد.

وهذا من مظاهر الوحدة بين أفراد الأمة بل بين المؤمن والكون من حوله ، إضافة إلى كون الطواف صلاة ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلاةٌ ، فَأَقِلُّوا مِنَ الكَلامِ" (سنن النسائي).

كما أن الحاجَّ بإحرامه يمتنع عن أشياء أحلها الله له وهو في حله وحتى وهو صائم ، مما يرتقي بالمسلم ويسمو به على شهواته وملذاته ، ومنها إزالة شعر الرأس بحلق أو غيره لقوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [البقرة: ١٩٦] ، وقوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧].

ولا شك أن هذا مظهر يدل على الوحدة والمساواة بين عباد الله تعالى الذين لبسوا لباسًا واحدًا وأحرم كل منهم من محل إحرامه قاصدين بيتًا واحدًا ، لا فرق بين غنى أو فقير ، صغير أو كبير ، رجل أو امرأة ، فكل من قصد بيت الله الحرام قد أحرم ولبى بالحج.

ووحدة الصف من غايات مناسك الحج للذين تجمعهم وحدة العقيدة ، فالمؤمن قلبه عامر بالإيمان مطمئن بذكر الرحمن: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد:٢٨] ، وشعيرة الحج تجعل المؤمنين يكثرون من ذكر الله ويُشْغَلون به عما سواه.

فالحاجّ يلبي نداء مولاه "لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك" ، وغير الحاجّ ممن لم تتوفر لهم مؤنة الحج مشغولون بالدعاء والذكر في عيد الأضحى وصوم يوم عرفة الذي قال عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونبه أمته إلى فضله: "خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ

شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (سنن الترمذي).

ويوم عرفة رمز لوحدة المسلمين ومظهر من مظاهر قوتها ، فالحجيج على اختلاف لغاتهم وتباين ألوانهم وتباعد أقطارهم قد اجتمعوا في صعيد واحد ولباس واحد وهتفوا بهتاف واحد في وقت واحد ، يتعارفون فيما بينهم وتتآلف قلوبهم ، وأصبح كلٌّ منهم ممثلاً لبلده في هذا المؤتمر الحافل ، يتدارسون مشاكل أمتهم ، ويبحثون علاجها ، ويعلنون للدنيا كلها أنهم أمة واحدة وكيان واحد.

كما يتأكد الأخذ بالأسباب في أداء منسك السعي بين الصفا والمروة ، فعلى المسلم أن يتمثل موقف السيدة هاجر التي جاءت برضيعها في وادٍ غير ذي زرع ، وتوكلت على الله حق التوكل ، أخذت بالأسباب وجدَّت في البحث عن الماء لرضيعها ولم تيأس حتى نبع الماء لرضيعها ، فعلى المسلم ألا ييأس ، بل يطمع في رحمة الله تعالى ويأخذ بالأسباب ، وما أحوج أمتنا إلى العمل ، ونبذ التكاسل والخمول.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

كما أن فريضة الحج تبعث في الأمة روح التسامح والتكامل والتآلف ، وهذا مما يدعم وحدتها وينمي قوتها ، فحين تتكامل في اقتصادها وتتبادل احتياجاتها بحيث تقوى كل أركانها ؛ فإنها تصبح عصية على أعدائها ، ولذا كان في الحج منافع دنيوية كما أن فيه منافع أخروية ، قال تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِير} [الحج: ٢٧].

وروي عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقنا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا أن يتجروا في الحج فسألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله تعالى قوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [البقرة: ١٩٨] (صحيح البخاري).

ونحن أمة خيِّرةٌ مدعوة إلى التعاون في كل سبل الخير إذ إن من ثمرات الوحدة التعاون والتكامل في كل النواحي الاقتصادية والسياسية والزراعية والدفاعية ، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢] ، وقال تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠].

ومن ثمرات الوَحدة الإخلاص وتقوى القلوب ، فمن التقوى أكل الحلال ، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١] ، ومن التقوى تعظيم الحرمات ، وعدم سفك الدماء وعدم ترويع الآمنين ، عن طريق التطرف والتعصب لغير الحق ، وصاحبه أبعد ما يكون عن الحق ، ونبه الحق على هذا: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [الحج:٣٠].

والنبي (صلى الله عليه وسلم) نبَّه على هذا في حجة الوداع فقال: "أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟"، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟" قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: "أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟"، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ "أَلَيْسَ ذُو الحَجَّةِ؟"، قُلْنَا: بَلَى ، قَالَ "أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ: "أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الحَرَامِ؟" قُلْنَا: بَلَى ، قَالَ: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟"، قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ، فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (متفق عليه).

والإخلاص يجمع كل هذا فهو أساس العبادة ، قال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥] ، وفي سورة الحج يقول الله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: ٣٧] ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) كان مخلصًا في حجه ، مقتصدًا في نفقته ، عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: حج النبي (صلى الله عليه وسلم) على رحل رث ، وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي ، ثم قال: "اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لاَ رِيَاءَ فِيهَا وَلاَ سُمْعَةَ" (سنن ابن ماجه).

فعلى المسلم أن يخرج من حجه وقد تغير ظاهرًا وباطنًا وبدا طاهرًا قلبه ، نظيفًا في تعامله مع الناس ، محافظًا على وحدة الصف ، متآلفًا مع أبناء مجتمعه ، وإذا كان الله (عز وجل) قد شرع للمسلمين اجتماعات تلم شعثهم وتوحد صفوفهم كصلاة الجماعة والجُمعة ، فإن الحج أعظم هذه الاجتماعات ، فيه يتعارفون ويتآلفون ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

* * *

الحج بين السلوك والنسك

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الحج موسم من مواسم الطاعة ، وركن من أركان الإسلام ، وركيزة من ركائزه ، ففي الحديث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً" (صحيح مسلم) ، فرضه الله تعالى على من استطاعه من عباده ، فقال تعالي: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَحُجُّوا" (صحيح مسلم).

ففريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، من أنكرها فقد كفر ، ومن أقرَّ بها وتركها تهاونًا فهو على خطر ؛ إذ كيف تطيب نفس المؤمن أن يترك الحج مع قدرته عليه بماله وبدنه ، وهو يعلم أنه من فرائض الإسلام وأركانه .

والحج له فضل كبير وثواب جزيل ، بيّنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) سُئِلَ: أَيُ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: "إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" ، قِيلَ: ثُمّ مَاذَا؟ قَالَ: "الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" قِيلَ: ثُمّ مَاذَا؟ قَالَ: "حَجٌّ مَبْرُورٌ" (صحيح البخاري).

ورغم أن الحج مرة واحدة في العمر كله ، إلا أن تأثيره يمتد بقية عمر الإنسان إن أحسن حجه وأخلصه.

وقد أمر الله (عز وجل) نبيه إبراهيم (عليه السلام) أن ينادي بالحج، فقال تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧].

والمتأمل في العبادات يجد أن الغاية المنشودة والثمرة المرجوّة منها هي تزكية النفوس البشرية وتقوية صلة الإنسان بربه وخالقه ، وبمن يعيشون معه في مجتمعه ، لتؤتي أكلها إذا صدقت النية ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى:{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٥٤]. وبالزكاة تتآلف

القلوب وتتطهر النفوس والأموال ، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة ١٠٣].

وبالصوم يتدرب المسلم على الصبر ، وبالحج ومناسكه تغرس الفضائل في قلوب المسلمين وتدعوهم إلى محاسن الأخلاق وإلى وحدة الصف ، وإلى التعارف والتعاون والتراحم والتكافل ورحمة القوي بالضعيف والإيثار ولين الجانب ، فالعبادات والطاعات شُرِعت للارتقاء بالخلق الإنساني وتقويم السلوك البشري ، فكل عبادة تأخذ بيد صاحبها إلى الطريق المستقيم ، ومن ذلك فريضة الحج ، والتي تسهم بدورها في تصحيح مسار السلوك الإنساني.

فقد يظن بعض الناس أن مجرد السفر إلى الأراضي المقدسة لأداء النسك رحلة مجردة عن المعاني الخلقية ، وهذا ظن خاطئ ، فالعبادات تحمل في طياتها كل المعاني الخلقية والإنسانية ، ولها ثمرتها التي تؤثر في أخلاق صاحبها وسلوكياته.

وفي فريضة الحج يقول ربنا سبحانه: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧] ، وفي هذا إشارة إلى علاقة الأخلاق والسلوك بالحج ، فلا يتصور أبدًا أن يكتمل حج إنسان دون أن يتخلق بأخلاقياته ، فالحج ليس كلمة ، وإنما هو سلوك ومسئولية وخلق.

فالآية الكريمة جاءت حاملة معها النهي عن هذه السلوكيات تحديدًا ؛ لأن الحج شُرع ليطهر الروح والنفس من كل أشكال الرفث والفسوق ، وإن المسلم إذا تحققت فيه آثار العبادات وتحلى بالآداب الشرعية ، وأصبحت أخلاقه انعكاسًا لما يعلمه ويعمل به من دين الله (عز وجل) كان من أهل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

فمن بداية رحلة الحج يعلن الحاج عن حسن توكله على الله وتفويض كل أموره إليه ، ويردد: "اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا ، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ ، وَمِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ". (سنن الترمذي).

إن الحج يربي في نفس صاحبه أخلاقًا عظيمة ، وآدابًا رفيعة ، وقيمًا عالية ، والتي يجب أن يتحلى بها الحاج وتنعكس على تصرفاته وسلوكه كله ، بعد أن حل ضيفًا على أكرم الأكرمين ، مبتغيًا الأجر والثواب ، قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (متفق عليه).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَ الجَنَّةُ" (متفق عليه).

وبناء على فضل الحج وثوابه العظيم ، كان الانضباط الخلقي أشد لزومًا ، يتطلب من الحاج أن يسمو بعقله وقلبه وسلوكه إلى مقام رفيع من الاستقامة والتقدير والتعظيم لشعائر الله تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج:٣٢].

وحسبنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد بين الغاية من بعثته وهي الدعوة إلى مكارم الأخلاق ؛ ولهذا فقد ملك قلوب الناس في دعوته بسلوكه القويم ، وتعامله الحسن ، وخلقه العظيم الذي امتدحه الله سبحانه وتعالى به في قوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] ، وما أجمل قول الشاعر :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وللحج آثاره البالغة التي تظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي ، ويتعدى هذا الأثر من الفرد إلى المجتمع كله من خلال وحدته ، وتصرفاته ، ومن تلك الآثار:

وحدة الصف: فالحج فرصة لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم تحت راية واحدة ، شعارهم التلبية "لبيك اللهم لبيك" ، والوقوف في وجه الإرهاب ، والتصدي لكل دعوات التخريب تحقيقًا لأمر الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣].

كذلك من آثار الحج: تبادل المنافع والتجارب والخبرات في المجال الاقتصادي ، فلا شك أن هذا التجمع للمسلمين من كل بقاع

الأرض فرصة لبحث الأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها لدى بعض البلاد ليتم تحقيق التكامل بين جميع أفراد الأمة.

ومن ذلك أيضاً: البذلُ والإنفاقُ للمحتاجين والفقراء والمساكين، فلا يبخل بمال أو جهد رغبة في الثواب والأجر ، ومن أشهر من عرف عنه ذلك الإمام عبد الله بن المبارك (رحمه الله تعالى) الذي كان إذا أراد الحج من بلده (مروْ) جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ نفقاتهم ، فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام ، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف ، ثم يرجع إلى بلده ، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا ، ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم ، فرد إلى كل واحد منهم نفقته .

ومن ثمَّ فإن الحاج لا بد وأن يتأثر بخلق الحج ويبقى أثره في نفسه ، ويعود من الحج وقد تحسن حاله واستقام أمره وأقبل على طاعة ربه ، حتى يتقبل الله حجه ، فالله لا يقبل العمل إلا من المتقين كما قال سبحانه: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة:٢٧].

ولنعلم أن أعظم الزمن بركة ، عشر ذي الحجة ؛ إذ لها مكانة عظيمة عند الله تعالى ، تدل على محبته وتعظيمه لها ، فهي عشر مباركات ، وهي أفضل أيام العام كله ، حيث يجتمع فيها حجاج بيت الله الحرام في أطهر بقعة من الأرض ، حول الكعبة المشرفة يطوفون ،

وإلى الطاعات يتسابقون ، وفي الخيرات يتنافسون ، وبخير زادٍ يتزودون ، عملاً بقول الله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧].

ومن فضائلها:

أن الله تعالى أقسم بها ، **فقال**: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ} [الفجر:٢،١] ، ولا يقسم تعالى إلا بعظيم ، **وأن الله تعالى قرنها بأفضل الأوقات** ، فقد قرنها بالفجر وبالشفع والوتر وبالليل ، وقد حظيت بهذه المكانة وتلك المنزلة ؛ لاجتماع أمهات العبادات فيها ، وهي الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، ووقوع غالب مناسك الحج فيها.

ولا يتأتى ذلك في غيرها ؛ لحديث ابن عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) عنِ النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا مِنْ عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ اللهِ (عز وجل) وَلا أَعْظَم أَجْرًا مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ فِي العَشْرِ الأَضْحَى" ، قِيلَ: ولا الجِهاد في سبيل الله؟ قال: "ولا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فلم يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ" (شعب الإيمان للبيهقي).

أنَّ الله (**تعالى**) **نصَّ في كتابه العزيز على ذكره فيها** ؛ **تعظيماً لله** – **تعالى** – **وإعلاماً بفضيلة هذه العشر** ، وإظهارًا لشعائرها ، حيث سماها الأيام المعلومات ، فقال تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} [الحج: ٢٧]. وقال ابن

عباس (رضي الله عنهما): هي أيام العشر (صحيح البخاري). فالأيام المعلومات هي العشر في قول أكثر أهل العلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام:

ومن فضائل هذه الأيام: **أنها أفضل أيام الدنيا على الإطلاق** ، وهي أحب الأيام إلى الله تعالى ، والعمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ". يَعْنِى أَيَّامَ الْعَشْرِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلاَ الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ؟ قال: "وَلاَ الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بشيء" (سنن أبي داود) ، ومن هذا الحديث يتضح أن هذه الأيام أفضل أيام السنة كلها ، وأن العمل الصالح فيها – أيًّا كان نوعه – أفضل منه في غيرها ، وأن العامل في هذه العشر أفضل من المجاهد في سبيل الله الذي رجع بنفسه وماله.

إلى غير ذلك من الفضائل ، ويستحب فيها الإكثار من العبادات من صلاة وصيام وذكر ، وآكدها صوم يوم عرفة لغير الحاج ، وقد خص النبي (صلى الله عليه وسلم) صيام يوم عرفة من بين أيام عشر ذي الحجة بمزيد عناية ، وبيّن فضل صيامه ، فقد ثبت عن أبي قتادة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سئل عن صوم يوم عرفة فقال: "يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالبَاقِيَةَ"(صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ" (صحيح مسلم).

التكبير والتحميد والتهليل والذكر:

ومن الأعمال التي ورد فيها النص على وجه الخصوص: الإكثار من ذكر الله عمومًا ومن التكبير خصوصًا لقول الله تعالى:{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} [الحج: ٢٨] .

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلاَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ" (مسند أحمد).

وقال البخاري: كان ابن عمر وأبو هريرة (رضي الله عنهم) يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. وقال: وكان عمر يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ، ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرًا ، وكان ابن عمر يكبر

بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه ، وفي مجلسه وممشاه تلك الأيام جميعًا. (صحيح البخاري معلقًا)

ويستحب أن يكثر العبد من نوافل الصلوات بعد الفرائض ، فهي سبب من أسباب محبة الله ، ويكثر فيها من الصدقة ؛ إذ الصدقة فيها أفضل من الصدقة في رمضان ، ويكثر من الصيام فيها ، ولو صام التسعة أيام لكان ذلك مشروعًا ؛ لأن الصيام من العمل الصالح.

وينبغي للمسلم أن يسابق في هذه العشر بكل عمل صالح ، ويكثر من الدعاء والاستغفار ، ويتقرب إلى الله بكل قربة ، وينبغي للمسلم إذا دخلت عليه العشر وهو يريد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا أظفاره شيئًا ، وأما من يُضحَّى عنه فلو أمسك لكان حسنًا باعتباره يضحي في الأصل بأضحية وليِّه ، وإن لم يمسك فلا حرج عليه.

ومن رحمة الله (عز وجل) أنه لم يحرم أحدًا أيًا كان من الفضل والثواب، فمن لم يستطع الحج أو كان قد أدى الفريضة التي افترضها الله (عز وجل) عليه فقد جعل رب العزة له في هذه العشر متسعًا من ألوان الخير والبر ، كما شرع فيها التكبير والأضحية لنشارك الحجاج في نسكهم وفي طاعتهم لله (سبحانه) ، هذه الأضحية التي هي سنة مؤكدة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكل قادر ، فعَنْ زَيْدِ ابْنِ أَرْقَمَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَذِهِ الأَضَاحِيُّ؟ قَالَ: "سُنَّةُ

أَيكُمْ إِبْرَاهِيمَ" (مسند أحمد) ، وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) ، أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ ، إِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلاَفِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا" (سنن الترمذي).

* * *

قضاء حوائج الناس
أولى من تكرار الحج وعمرة النافلة

الحمد لله رب العالمين ، القائلِ في كتابهِ العزيزِ: {وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} [المزمل:٢٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يكتمل إسلام المرء المستطيع بدنيًّا وماليًّا إلا بأدائه.

يقول الحق سبحانه: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٩٧] .

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَان" (متفق عليه).

فمن كانت نيته قائمة على الحج ولم يستطع – بسبب عجز ابتُلي به ، أو مرض أصابه ، أو فقر ، أو قلة مال – بلَّغه الله (عز وجل) ثواب الحج بإخلاصه في نيته وصدقه مع الله تعالى.

ولقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن فريضة الحج واجبة في العمر مرة واحدة ، فمن زاد على ذلك فهو تطوع ، قال (صلى الله عليه وسلم): "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَحُجُّوا" ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): "لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ" (صحيح مسلم) ؛ وذلك تيسيرًا منه (صلى الله عليه وسلم) على الناس ، ورفعًا للمشقة والعنت عنهم ، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

وينبغي على المستطيع أن يعجل بحج الفريضة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ ، وَتَضِلُّ الرَّاحِلَةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ" (مسند أحمد).

ومن المعلوم أن قلوب المسلمين تهفو إلى زيارة بيت الله الحرام حجًّا أو عمرةً مصداقًا لقول الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام): {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبراهيم: ٣٦] ، ورغبة منهم في تحصيل الأجر والثواب يسعى كثير منهم لتكرار الحج والعمرة مرددين قول النبي (صلى الله عليه وسلم): "تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ ، وَالذَّهَبِ ، وَالفِضَّةِ" (سنن الترمذي) ، غير أن هؤلاء على صدق نيتهم ، ورغبتهم الصادقة غاب عنهم ضرورة ترتيب الأولويات ، ولم يفقهوا أن

قول النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا مرتبط برعاية مقتضى حال الأمة والمجتمع اجتماعيًّا ، واقتصاديًّا ، وسياسيًّا.

فإذا كان المجتمع في سعة من العيش وكان اقتصاد الوطن قويًّا ومتينًا ليس في حاجة إلى من يدعمه ، وليس في أبناء الوطن جائع لا يجد ما يسد جوعته ، أو عارٍ لا يجد ما يستر عورته ، أو مريض لا يجد ما يتداوى به ، فليحج الناس ما شاءوا ، أما إن كانت الأمة أو الدولة في أوضاع اقتصادية تقتضي التعاون والتكاتف للوفاء بحاجات أبنائها واحتياجاتهم الأساسية ، كإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وسد ديون الغارمين والغارمات ، والإسهام في توفير الخدمات الأساسية فإن ذلك يكون أكبر أجرًا وأعلى ثوابًا من حج النافلة وتكرار العمرة.

وقد أخذ الإمام أبو حامد الغزالي (رحمه الله) على الذين يحرصون على إنفاق المال في الحج بعد الحج ، والعمرة بعد العمرة ، ولا يوفون بحق الفقراء وأصحاب الحاجات ، فربما تركوا جيرانهم جياعًا لا طعام لهم ، وذهبوا بنفقاتهم الواسعة لإشباع رغباتهم النفسية في كثرة الحج والعمرة غير مدركين لمقاصد الإسلام الكبرى ، نتيجة عدم إدراكهم لفقه الأولويات وترتيبها.

إن الفهم الصحيح لدين الله (عز وجل) بما يتناسب مع واقع هذا الزمان ، ويراعي أحوال الناس وحاجاتهم ؛ يقتضي أن لا تقف حدود الفهم عند بعض مسائل فقه الأحكام على سبيل التلقي أو التلقين ،

دون غوص أو إدراك لفقه المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح ، مما تغيب معه الغاية الأسمى لمقاصد التشريع.

وعلى ذلك فإن من أوجب الواجبات الشرعية في هذا الزمان على كل مسلم: أن ينضبط لديه ميزان الشرع الصحيح ، فيرتب الأوامر الشرعية والتعاليم الإسلامية حسب وضعها في دين الله تعالى ، حتى لا يؤخر ما حقه التقديم أو يقدِّم ما حقه التأخير ، أو يضيع الفاضل بانشغاله بالمفضول.

وقد قيل لبشر الحافي: إن فلانًا الغني كثر صومه وصلاته ، فقال: إنه لمسكين ، لقد ترك حاله ودخل في حال غيره ، إن واجبه إطعام الطعام وبناء الخيام ، فهذا أفضل من تجويعه لنفسه ، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وانطلاقًا من هذا الفهم المقاصدي لأوامر الدين الحنيف ، وترتيبًا لفقه الأولويات فإن تقديم قضاء حوائج الناس والمجتمع أولى من تكرار الحج والعمرة ؛ لأن قضاء حوائج الناس كالتيسير على معسرٍ وقضاء حاجته ، أو الصدقة على فقير وكفايته ، أو فك أسر سجينٍ مدينٍ بدينٍ من فروض الكفايات ، ومعلوم أن الوفاء بفروض الكفايات مقدم على جميع النوافل بما فيها تكرار الحج والعمرة ؛ لأن فقه الواقع يحتم على كل إنسان يعمل لمصلحة دينه ووطنه أن يقدم العمل الصالح الذي يتعدد نفعه على المجتمع على العمل الصالح الذي لا يتعدد نفعه ، ولا شك أن نفع قضاء حوائج الناس متسع ومتعدد ، وقد

يكون صدقة جارية في إصلاح طريق أو بناء جسر أو مشفى أو مدرسة ، يقول (صلى الله عليه وسلم): "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" (صحيح مسلم).

ولقد رغب الإسلام في قضاء حوائج الناس والمجتمع ، بل وجعلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله (عز وجل) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ ، قَالَ: "أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ سُرُورًا ، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا" (شعب الإيمان للبيهقي).

وعَنْ عُمَرَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلَئِنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إلى مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يعني مسجد المدينة - شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ ؛ مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثَبِّتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ" (المعجم الصغير).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" (متفق عليه) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ" (متفق عليه).

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة ، فأمر عند التفاضل بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فلابد من القيام بذلك ، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فلابد من القيام بها ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدين عن المدينين ، وتفريج كروب الغارمين فلابد من القيام بذلك ، وإن كانت الحاجة في توفير المياه النقية الصالحة لكل أفراد الأمة ، فلابد من القيام بهذا الواجب سدًّا للحاجات الضرورية للمجتمع.

وهذا ما فعله سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عندما اشترى بئر رومة استجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ" ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ: قَدِ ابْتَعْتُهَا بكذا وكذا ، قَالَ: "اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ" (سنن النسائي) ، فقد كانت حاجة

المجتمع ماسة لشراء المياه ، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن الإسهام في خدمة المجتمع بقضاء حوائج الناس وتقديم يد العون للفقراء والمحتاجين ، وخاصة وقت الأزمات والشدائد والمحن ، من أفضل الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى الله (عز وجل) ، فهو خير وسيلة للقضاء على الفقر ، والجهل ، والمرض ، حتى لا يجوع فقير ، ولا يضيع يتيم ، ولا يحتاج مسكين؛ ومن ثمَّ يتحقق التوازن المجتمعي ، والعدل بين الناس ، وضمان الأمن والأمان.

يروى أن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث ، وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة ؟ فقال: ألفي درهم ، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك ؟ تزهدًا أو اشتياقًا إلى البيت وابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله ، قال بشر: فإن أصبت مرضاة الله تعالى ، وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم ،

وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى ؛ أتفعل ذلك؟ قال: نعم ، قال: اذهب فأعطها لعشرة: مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوي قلبك تعطيها واحدًا فافعل؛ فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام (إحياء علوم الدين).

وفي الختام: ينبغي أن نعلم أن قضاء حوائج الناس والمجتمع ، وتحقيق احتياجاتهم الضرورية والأساسية واجب شرعي ووطني ، قد يكون واجبًا عينيًّا ، وقد يكون واجبًا كفائيًّا ، وفق الظروف والمسئوليات والمواقع والقدرة على الإسهام في حل المشكلات ، نسأل الله أن يرزقنا حسن الفهم والفقه ، وأن يهدينا إلى سواء السبيل.

* * *

الدروس المستفادة من خطبة حجة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [المائدة: ٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فكلما لاحَ في الأفق هلالُ شهر ذي الحِجَّة تجلت في الأذهانِ شعائر الحج ، ومناسكه ، الركن الخامس من أركان الإسلام ، وتداعت إلى الذاكرة تلك الخطبة التاريخية المعروفة بخطبة حجة الوداع.

ففي العام العاشر الهجري قصد النبي (صلى الله عليه وسلم) بيت الله الحرام ؛ لأداء مناسك الحج ومعه جمع غفير من أصحابه (رضي الله عنهم) ، وقد عُرفت هذه الحجة بحجة الوداع ؛ لأنه (صلى الله عليه وسلم) ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها .

وفي هذه الحجة خطب النبي (صلى الله عليه وسلم) خطبته المشهورة بخطبة الوداع ، والتي تمثل في بلاغتها وفصاحتها وإيجازها قيمة إيمانية وتشريعية وإنسانية عظيمة وراقية ، وتُعد أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان ، ومنهاجًا قويمًا للبشرية ، وهي من جوامع الكلم التي أُوتيها نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، أرسى فيها كثيرًا من قواعد الإسلام

ومبادئه ، وعظّم فيها الحرمات ، ويتجلى لنا مشهد خطبة الوداع في صعيدِ عرفات ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقف عند الصخرات من جبل عرفة ، في أعظم تجمع بشري في ذلك الوقت ، في لقاءٍ مشهودٍ بين أمَّةٍ ونبيها ، مؤمنين به ، مصدقين برسالته ، مطيعين لأمره ، بدأت الكلماتُ تتلألأ من فَمِ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) وهو يَسْتَشْعِرُ مع كل حرف منها دنوَّ أجلِه بعد هذه المناسك ، وكان يقول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه الكرام: "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ ، فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا" (سنن الترمذي) " وَطَفِقَ يُوَدِّعُ النَّاسَ، فَقَالُوا: "هَذِهِ حَجَّةُ الْوَدَاعِ". (صحيح البخاري)،

لقد اشتملت تلك الخطبة على دروس وعبر عظيمة تُعدّ نبراسًا للبشرية كلها ، وتأسيسًا للأمن والسلم المجتمعي والعالمي ، من هذه الدروس:

ترسيخ مبدأ المساواة والكرامة الإنسانية بين الناس جميعًا كحق إنساني يحفظ كرامة الفرد في الأمة ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) في خطبته: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلاَ بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ..." (مسند أحمد) ، فقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح ، امتثالاً لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، فالبشرية كلها سواسية دون تمييز طبقي ، أو تعصب قبلي ، فالناس جميعًا ينتمون لأصل واحد ، وأب واحد ، هو آدم (عَلَيْهِ السَّلام) ، وهو ما رسخه النبي (صلى الله عليه وسلم) واقعًا عمليًّا حين قال: "سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ" (المستدرك للحاكم).

وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: "أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا ، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا" يَعْنِي سيدنا بلاَلاً (رضي الله عنه) (صحيح البخاري).

حرمة الدماء والأموال والأعراض ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبته ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ ، أَوْ بِزِمَامِهِ – قَالَ: "أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا: بَلَى ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ ؟ قُلْنَا: بَلَى ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ" (مُتفَقٌ عَلَيْه) ، فقد دلت هذه الكلمات البليغة ، بهذا الأسلوب النبوي البديع على عِظم حرمة الدماء ، والأموال ، والأعراض وعصمتِها ، وأنه لا يحل الاعتداءُ عليها بأيِّ نوع من أنواع الاعتداء .

فقد لفت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتباه أصحابه (رضي الله عنهم) لهذا اليوم العظيم ، وذكَّرهم بحرمته ، وحرمة الشهر ، وحرمة البلد تقريرًا لما ثبت في نفوسهم من تعظيمها ؛ ليبني عليه ما أراد تقريره وتأكيده من عظم حرمة الدماء والأموال والأعراض ، فالإسلام يدعو إلى الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، ويريد للناس جميعًا أن يحيوا حياة مستقرة ، ولا يتحقق لهم ذلك إلا بحقن الدماء والأعراض والأموال.

ومن المعلوم أن حفظ الدماء والأعراض والأموال لا تمييز فيه في الإسلام بين مسلم وغيره ؛ لأن الشريعة كفلت ذلك لكل إنسان بغض النظر عن دينه ، أو جنسه ، أو لونه ، قال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١] ، بل جعل الله (عز وجل) قتل نفسٍ واحدة بغير حق كأنه قتلٌ للبشرية كلها ، قال تعالى: {مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢] ، فلاَ يحلُّ لإنسان أَنْ يعتدِيَ علَى أخيهِ بأي نوع من أنواع الاعتداء ، أو أن يتعرضَ لهُ بأي لون من ألوان الإيذاءِ ، لقوله (صلى الله عليه وسلم): "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ" (صحيح مسلم) ، فأمر الدماء في الإسلام عظيم ، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ" (سنن ابن ماجه).

وقد حذَّر النبي (صلى الله عليه وسلم) تحذيرًا آخر في هذه الخطبة يتعلق بالدماء وحرمتها ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (مُتفَقٌ عَلَيْه) ، وهذا تحذير نبوي شديد ، للدلالة على خطورة استحلال الدماء بغير حق.

وكما حرَّم الإسلام الاعتداء على الأنفس حرم كذلك الاعتداء على الأموال بأي صورة من صور الاعتداء غصبًا ، أو سرقة ، أو احتيالاً ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} [النساء: ٢٩] ، وقال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٨٨] ، وحفاظًا على الأموال بوجه عام حرمت الشريعة الإسلامية السرقة ، والغصب ، والاعتداء على المال العام أو الخاص ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ" (مُتفَقٌ عَليْه).

وكذلك حرم الإسلام الاعتداء على الأعراض ، أو النيل منها بأي وجه من الوجوه فأولاها عنايةً خاصةً ، وأوجب صيانتَها والمحافظةَ عليها ، لا فرق في ذلك بين مسلم وغيره ، فقال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً} [الإسراء: ٣٢] ، كما حرم النبي (صلى الله عليه وسلم) قذف المحصنات وعدّه من الكبائر ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ" ، قيل: يا رسول الله

وما هنّ؟ قال: "الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِناتِ الْغافِلاتِ" (مُتفَقٌ عَليْه).

وأوصى الإسلام بالنساء وبالمحافظة على حقوقهن ، فديننا العظيم هو أول من أعطى المرأة حقوقها ، وجعل لها النبي (صلى الله عليه وسلم) نصيبًا كبيرًا في خطبته ؛ لما لها من حقوق آدمية وكرامة إنسانية ، فالنساء شقائق الرجال ، في ضوء الرحمة والمودة والسكينة والحقوق المتبادلة ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله: "وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ" (تفسير بن جرير) ، فالمرأة في الإسلام لها حقوقها وعليها واجباتها ، كما للرجل حقوقه وعليه واجباته سواءً بسواء ، ولقد لخص القرآن الكريم دستور العلاقة بين الزوجين أجمل تلخيص ، حين قال: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨].

فهذا دليل قاطع على أن الإسلام لم يظلم المرأة أو ينتقص من قدرها ، بل على العكس من ذلك تمامًا ، فقد كرّم الإسلام المرأة أمًّا ، وبنتًا ، وزوجة ، وأختًا ، فعندما سُئل النبي (صلى الله عليه وسلم): مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: "أُمُّكَ" ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ" ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ" ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَبُوكَ" (مُتفَقٌ عَليْه) ، وقال: (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا

يوم القيامة مِنْ النَّارِ" (سنن ابن ماجه) ، وفي رواية: "مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَ بَنَاتٍ ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَ أَخَوَاتٍ ، حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُوتَ عَنْهُنَّ ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" (مسند أحمد).

فالرجال آباء أو أبناء أو إخوة أو أزواج مطالبون بحسن المعاشرة للنساء عمومًا ، فلا يحل لهم ظلمهنّ بوجه من الوجوه حتى ولو كان يسيرًا ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

من الدروس المستفادة من خطبة حجة الوداع: **الحث على وحدة الأمة والنهي عن الفرقة والعصبية** ، فقد حذر رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي خطبته من الفرقة والتنافر ، والتنازع والتدابر ، فقالَ

(صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَلَكِنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ" (صحيح مسلم) ، وقال: "إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا ، وَلَكِنّهُ إنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ" (مسند عبد بن حميد).

إن وحدة الأمة واعتصامها هو سِرُّ بقائها ودعامة قوتها والسبيل إلى نهضتها ؛ لذا كانت دعوة الإسلام إلى الحفاظ على هذا التماسك ونبذ الخلاف والتفرق والتشرذم صريحة واضحة في قول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣] ، وكانت دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) للأمة بالتزام الوحدة وعدم الفرقة والتنازع ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ" (سنن الترمذي) ، وضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلاً للأمة في تماسكها وتآزرها ، فقال: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" (مُتفَقٌ عَليْه).

ألا فالحذرَ الحذرَ مِنَ الخلافِ والنِّزاع ، فإِنَّهُ شرٌّ يَجُرُّ إِلَى الْفُرْقَةِ والضياع ، والحذرَ الحذرَ مِنَ الانتماءاتِ أَوِ التحزُّبَات لأي جماعة متطرفة أو متشددة أو مستغلة للدين أو متاجرة به ، فإِنَّه شَرٌّ يُؤَدِّي بالمجتمعاتِ إِلَى التفكُّكِ والشتات ، فيجب أن يتآلف الجميع

ويتعاونوا لتحقيق استقرار الأوطان ، وهذا ما أمر الله (عز وجل) به ، فقال سبحانه: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢].

وما أجدر البشرية جمعاء أن تقف أمام هذا الهدي النبوي العظيم المتمثل في خطبة الوداع التي جمعت في كل ألفاظها ومعانيها الخير للبشرية جمعاء ، فقد كانت بحق سبقًا في تاريخ البشرية حين أرست قواعد حقوق الإنسان ، ورسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية ، فلو تدبَّرها الناس وعملوا بما فيها ، لكانت سببًا في إسعادهم في الدنيا والآخِرة.

* * *

حقوق الإنسان والحفاظ على آدميته
في ضوء خطبة حجة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فكلما لاح في الأفق هلالُ ذي الحِجَّة تجلت في الأذهانِ شعائر الحج ، وتذكر المسلمون جميعًا حجة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي رسمت معالم الحج لكل المسلمين في كل عصر ومصر ، فقد احتوت هذه الحجَّة النبويةُ على مجموعة من المبادئ السامية ، وبها عدة مشاهد إيمانية راقية ، يضيق المقام عن ذكرها أو استقصائها.

ويتجلى لنا مشهد الخطبةِ الجامعةِ المانعة التي خطبَها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) في صعيد عرفات ، في جَمْعٍ من الصحابة وقد التفوا حولَ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) فكانَ لقاءً مشهودًا بين الأمَّةِ ورسولِها ، الكلماتُ تتلألأ من فَمِ النبيِّ (صلى الله

عليه وسلم) وهو يَسْتَشْعِرُ مع كل حرف منها دنوَّ أجلِه بعد هذه المناسك.

فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ شَهِدَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي يَوْمِ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: "أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَاللَّهِ لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ فَوَعَاهَا ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلاَ فِقْهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ" (سنن الدارمي).

وتُعد خطبة حجة الوداع من جوامع كلمه وفصاحته (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُول اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قال: "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُو وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ في يَدَىَّ" (صحيح مسلم).

فكلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أعلى درجات البلاغة والفصاحة لأنه مضبوط بضابط الوحي ، قال تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣-٤].

وأصغت الدنيا بأسرها لتسمع كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يوضح مبادئ الرحمة والإنسانية ، ويرسي لها دعائم السلم والسلام ، ويقيم فيها أواصر المحبة والأخوة ، ويفرش بأرضها روح التراحم والتعاون.

وتعد خطبة حجة الوداع أول وثيقة وإعلان عالمي لحقوق الإنسان بغض النظر عن دينه أو معتقده أو لونه أو جنسه ، ويعد النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الرائد الأول والراعي الأعظم لحقوق الإنسان ، فرسالته التي حملها للعالمين جميعًا رسالة إنسانية ، شملت برعايتها جميع الحقوق التي تتعلق بالإنسان من حيث هو إنسان.

وقد تطرقت خطبة حجة الوداع إلى جوانب دقيقة من حياة الإنسان ، لم يتطرق إليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في القرن العشرين ، ولم يخطر على بال واضعي هذا الإعلان أن يتحدثوا عنها من جملة الحقوق التي تضمنها إعلانهم.

إن رسول الإنسانية الأعظم (صلى الله عليه وسلم) الذي وقف لجنازة يهودي احترامًا لإنسانيته ، وجعل من نفسه خصمًا لكل من يؤذي ذميًّا لجدير بأن يتربع على عرش حقوق الإنسان ، وأن يقف واضعو هذه الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان صاغرين أمام عظمته وإنسانيته.

يقول الشيخ الغزالي (رحمه الله): "إن آخر ما أملت فيه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام ، وان إعلان الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تلقاها المسلمون عن الإنسان الكبير والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)".

وإذا تأملنا خطبة الوداع بكل ما فيها من كلمات مباركات ودققنا فيها النظر ، وجدنا كل ما يتشدق به الشرق والغرب من نظريات وأفكار موجودًا في هذه الكلمات المعدودة ، بل إننا نجد ما هو أكثر منه وأهمُّ.

لقد فرَّقت هذه الخطبة الجامعة بين عهدين: عهد الظلم والبطش والجهل والكفر البواح ، وعهد العدل والأمان والعلم والإيمان ، فرسمت للبشرية منهج حياة ومبادئ دائمة لا تتغير ولا تتبدل عبر العصور والأزمان.

وتأتي على رأس حقوق الإنسان والمحافظة على آدميته حرمة دمه ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع بقوله: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ ، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ" (متفق عليه).

إن الإسلام لا يرضى – بأي حال من الأحوال – بسفك الدماء ، ويُحرِّم قتل النفس البشرية بغير حق ، قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣].

إن المسلم في متسع من الأمر يرجو دومًا أن يعدل مساره ويتوب إلى ربه ، لكن حينما يقترب من الدماء ويعتدي على البناء الذي بناه الله سبحانه وتعالى وهو الإنسان يكون قد ضيَّق الخناق على نفسه.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا" (صحيح البخاري).

إن القتل ورطة يورط القاتل بها نفسه ، فهذا عبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ (رضي الله عنهما) يقول: "إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا ، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ" (صحيح البخاري). وَثَبَتَ عَنْه (رضي الله عنه) قوله لِمَنْ قَتَلَ عَامِدًا بِغَيْرِ حَقٍّ: "تَزَوَّدْ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِد ، فَإِنَّك لاَ تَدْخُلُ الْجَنَّة" (فتح الباري).

إن أمر الدماء في الإسلام عظيم ، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ" (سنن ابن ماجه).

بل إن المعاهد الذي له عهدٌ مع المسلمين بعقدِ أمان حقه محفوظ ، وقتله منهي عنه ، فعن عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) عَنْ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (صحيح البخاري) ، وأعظم ذلك أن الإسلام حمى الإنسان من نفسه فحرم عليه الانتحار ، وأن يلقي بيده إلى التهلكة ، فقال سبحانه و تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ

إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩] ، وقال سبحانه: {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥].

ومن المبادئ الإنسانية العظيمة التي أرست قواعدها خطبة الوداع حرمة انتهاك الأعراض واستباحتها بالقيل والقال ، وخاصة القول الفاحش.

ولقد أعلن النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ في خطبة الوداع ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، أنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ ، أَوْ بِزِمَامِهِ- قال: "أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قال: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا: بَلَى ، قال: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَال: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ ؟ قُلْنَا: بَلَى ، قال: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ" (صحيح البخاري).

وفي رواية قال (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ - حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَلاَ تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا - أَوْ ضُلاَّلاً - يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (صحيح مسلم).

وللإسلام عناية عظيمة بالأعراض فقد صانها وحرم الاعتداء عليها بالإيذاء أو النظر أو القذف ، ومن أجل الحفاظ على الأعراض ؛ حرم الله – تعالى – الزنا ، وحرم الوسائل المؤدية إليه من النظر والاختلاط والخلوة ، قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [الإسراء:٣٢].

ومن أجل حماية الأعراض وصيانتها حرم الله (عز وجل) السخرية بالمسلم ، ونهى عن اللمز والهمز ، وأن يعيب المسلم أخاه ويتنقصه ، وحرم الغيبة والنميمة ، وحرم القذف بالفاحشة ، وبالجملة حرم كل ما من شأنه أن يهتك عرضًا أو يجرح كرامة ، فالعِرض والشرف لا يُقدِّره إلا أصحاب النخوة والدين والمروءة.

هــذا: والمرأة أيضًا كان لها نصيب في خطبة الوداع لما لها من حقوق آدمية وكرامة إنسانية ، فالنساء شقائق الرجال ، كما أخبر الصادق (صلى الله عليه وسلم).

ومن ثم جاء في الإعلان عن حقوق المرأة في خطبة الوداع ما رواه جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (صحيح مسلم).

فالمرأة في الإسلام لها من الحقوق وعليها من الواجبات مثل ما للرجل ، ولقد لخص القرآن دستور العلاقة بين الزوجين أجمل تلخيص حين قال: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨].

وهكذا اهتم الإسلام بالمرأة أمًّا و أختًا و بنتًا و زوجة وجعل لها من الحقوق ما يكفل سعادتها في الدارين ويصونها ويحافظ على كرامتها الإنسانية.

وأوصانا بهنَّ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) خيرًا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا" (صحيح البخاري) ، فكلمة (خيرًا) الواردة في الحديث كلمة جامعة مانعة للتخلق بأسمى معاني الرجولة حين يتعامل الرجال مع النساء.

كذلك يتجلى في خطبة الوداع مبدأ المساواة بين جميع أفراد الأمة كحق إنساني يحافظ على كرامة الفرد في الأمة ، ويجعل معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ (رضي الله عنه) قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى" (مسند أحمد).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام:

لقد بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) معنى المساواة عمليًّا بين جميع أفراد الأمة حين جاء وجهاء من القوم شفعاء في امرأة شريفة وجب عليها حد السرقة ، حتى لا توقع عليها العقوبة ، فأبى النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك ، ونبَّه إلى خطورة المسألة ، فلو انتهك مبدأ المساواة بين جميع أفراد الأمة لعمَّت الفوضى وحل الهلاك كما حل بالأمم السابقة.

فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله

عليه وسلم)؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَأيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" (صحيح البخاري).

إن مبدأ المساواة مبدأ أصيل بين جميع أفراد المجتمع بغض النظر عن أي اعتبار على أساس أنه حق أصيل للإنسان ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٣٥].

ومن الصور المشرقة لتحقيق هذا المبدأ على أرض الواقع: ما حدث من تنازع بين سيدنا عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو أمير على المؤمنين مع يهودي ، فاحتكما إلى شريح قاضي المسلمين ، فسأل أمير المؤمنين – على اعتبار أنه خصم يتساوى مع خصمه اليهودي – البيّنة فعجز عن إقامتها ، فوجّه اليمين إلى خصمه اليهودي فحلف ، فحكم بالدرع لليهودي ، فتعجب اليهودي من الأمر ، وقال: قاضي أمير المؤمنين يحكم لي عليه! ونطق بالشهادتين

وأسلم لما رأى من عظمة الإسلام وعظمة مبادئه وأحكامه التي تتعامل مع الإنسان على اعتبار إنسانيته.

كذلك من حقوق الإنسان التي تناولها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع المحافظة على المال ، فلا ينكر أحد ما للمال من أهمية في تسيير أمور الحياة لتحقيق وسائل العيش الكريم ، وصدق من قال:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمُ   لم يبن ملك على جهل وإقلال

وجاء في مأثور الحكمة: "لا خير فيمن لا يطلب المال ، يصون به عِرْضه ، ويسد به خلله".

وحفظ المال من ضروريات الدين الخمس ، وحق تملكه في الإسلام غاية في السمو والرقي أوجب على المسلم أن يحفظه ويصونه ، وحرَّم عليه سرقته أو إتلافه.

وفي خطبة الوداع حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الربا على اعتبارها أفحش صور استغلال حاجة الناس وضياع أموالهم وأكلها بالباطل ، فقال (صلى الله عليه وسلم): "وإنَّ رِبَا الجَاهِلِيّة مَوضوعٌ ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإنّ أَوّلَ ربًا أَضع رِبَا العباسُ بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله" (شرح مشكل الآثار). ويقول الحق سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٨ – ٢٨١].

ويقول سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩ ، ٣٠].

ما أجدر الدنيا كلها أن تقف أمام هذا الهدي النبوي العظيم المتمثل في خطبة الوداع التي جمعت في كل ألفاظها ومعانيها الخير كله للبشرية جمعاء ، فقد كانت بحق سبقًا في تاريخ البشرية أرست قواعد حقوق الإنسان. فهذه الخطبة أعظم وثيقة رائدة في مجال حقوق الإنسان ، رسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية.

* * *

منزلة الشهداء والتضحية في سبيل الوطن

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، القَائِلِ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤]، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وبعـد:

فإن الشعب المصري يحتفل في هذه الأيام بذكرى من أعظم الذكريات الخالدة في تاريخه ، وبيومٍ من أيام الله (عز وجل) الذي امتن فيه ربنا على مصر بالنصر على أعداء الأمة الذين عثوا في الأرض فسادًا ، إنها ذكرى انتصارات السادس من أكتوبر – العاشر من رمضان – هذه الملحمة الكبرى التي سطرت فيها الجندية المصرية معاني البطولة والفداء والتضحية بكل ما تملك ، وتجلى فيها معدن الجندي المصري الأصيل بإيمانه بالله (عز وجل) وثقته في نصر الله تعالى له ، وصدقه مع نفسه ، وقوة عزيمته وإرادته في تحقيق هدفه ومراده.

إنه حين تكون الأهداف ساميةً ، والمقاصد شريفةً ، والغايات نبيلةً؛ فإن التضحيات لا بد أن تكون غاليةً ونفيسةً ، وليس أغلى ولا أنفس ولا أجل من التضحية بالنفس طلبًا للشهادة في سبيل الله تعالى ، فيبذل

المرء روحه دفاعًا عن دينه ، وأرضه ، وعرضه ، وذودًا عن حياض وطنه؛ لينال مقامًا عليًّا وهو مقام الشهادة.

إن مقام الشهادة منحة ربانية وهبة إلهية من الله تعالى ، يمتن الله (عز وجل) بها على أحب خلقه إليه بعد النبيين والصديقين ، يَقُولُ تَعَالَى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء:٦٩] ، فاختيار الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ ما ليكون شهيدًا لهو أدل على رضا الله (عز وجل) عنه ، وأي درجةٍ أسمى من هذه الدرجة! وقد ألمح القرآن الكريم إلى ذلك بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران: ١٤٠] ، فالشهيد ضحى بنفسه في سبيل إرضاء ربه ودفاعًا عن وطنه ، وآثر الآخرة على الدنيا واستعلى وانتصر على شهواته ورغباته ، وخاض غمار المعارك فداءً للدين وللوطن.

فهنيئًا للشهيد بهذه المنزلة المباركة ، وربح بيعه ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة: ١١١] ، فَيَا لَهَا من صفقة كريمة جزاؤها الجنة، فَفي الْحَدِيْثِ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ؟ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ – أي: لا يُعْرَفُ لَهُ رَامٍ– فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ

عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ ، قَالَ: "يَا أُمَّ حَارِثَةَ ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى" (صحيح البخاري).

إن الشهيد الحق هو من أخلص لله وضحى في سبيله ، وبذل نفسه وجاد بها في سبيل إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن أرضه ، ورفع راية وطنه ، فَعَنْ أَبِي مُوسى (رضي الله عنه) ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، فَقَالَ: "الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ" (صحيح البخاري).

كما أن الشهيد الحق: هو الرجل الذي لا يرضى الدنية بكل صورها ، ويرفض المذلة والهوان ، ويقاوم كل من يحاول أن يعتدي على ماله أو متاعه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مالي؟ قَالَ: "فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ" ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ:"قَاتِلْهُ" ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: "فَأَنْتَ شَهِيدٌ" ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: "فَهُوَ فِي النَّارِ" (صحيح مسلم).

والشهيد الحق كذلك: هو الذي يدافع عن أرضه وعرضه ووطنه ، فالدفاع عن الوطن والعرض عند المسلم الحق كالدفاع عن النفس والدين والمال ؛ لأن الدين لا بد له من وطنٍ يحمله ويحميه ، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه

وسلم): "مَنْ أُصِيبَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ أُصِيبَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ أُصِيبَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" (متفق عليه).

ومن ثم اقترن معنى الشهادة بتضحية المرء بنفسه في سبيل الله ، في كل موقفٍ يتطلب فيه الدفاع عن الدين لإعلاء كلمة الله تعالى ، وعن الأرض لصيانتها ورد العدوان عنها.

لأن حب الوطن من الإيمان ، فهنيئًا لشهداء ملحمة العبور الخالدة ، أولئك الذين ارتوت بدمائهم الزكية أرض مصر الطاهرة ، فارتفعت أرواحهم إلى الله (عز وجل) وفازوا برضوانه ، والنعيم الذي وعدهم الله سبحانه وتعالى به ، ونسأل الله أن يكتبنا من الشهداء.

وللشهادة في سبيل الله (عز وجل) ثمرات عظيمة ، منها: ما أخبر الله تعالى به في كتابه الكريم أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، يَقُولُ تَعَالَى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩-١٧١] ، نعم إنهم أحياء وليسوا أمواتًا ، إنهم يرزقون ، ورزقهم من الله تعالى ، فهم فرحون بما أعطاهم الله ؛ حيث جنة الخلد التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ ، ويستبشرون بإخوانهم القادمين عليهم ، فلا حزن ، ولا غم ، ولا هم ، بل استبشار ، وفضل ، ونعيم.

وَعَنْ جَابِرِ بْن عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنهما) قال: لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ لِي:"يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي ، وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا ، قَالَ: "أَفَلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ" ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: "مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا (مُواجَهَةً لَيْسَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَلا رَسُولٌ) فَقَالَ: يَا عَبْدِي ، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، قَالَ الرَّبُّ (عز وجل): إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ" ، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] ، (سنن ابن ماجه).

وَمِنْ مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ: أَنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ رَبِّهِ سِتَّ خِصَالٍ ، جَاءَتْ مُبَيَّنَةً فِي حَدِيثِ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِب (رضي الله عنه) حَيْثُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): "لِلشَّهِيدِ عندَ اللهِ ستُّ خصالٍ: يُغفرُ لهُ في أولِ دفعةٍ ، ويَرى مقعدَهُ منَ الجنةِ ، ويُجارُ منْ عذابِ القبرِ، ويأمنُ منَ الفزعِ الأكبرِ ، ويُوضعُ على رأسِهِ تاجُ الوقارِ ، الياقوتةُ منها خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ويُزوَّجُ اثنتينِ وسبعينَ زوجةً من الحورِ العينِ ، ويُشفَّعُ في سبعينَ منْ أقاربِهِ -وَفِي لَفْظٍ- مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ" (سنن الترمذي).

وَمِنْ أَلْوَانِ الكَرَامَةِ أيضًا: أَنَّ المَلائِكَةَ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا ؛ فَعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) أَنَّهُ قَالَ: "جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ (صلى

الله عليه وسلم)– أَيْ: شَهِيدًا يَوْمَ أُحُدٍ– قَدْ مُثِّلَ بِهِ ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ ، فَنَهَانِي قَوْمِي ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ صَوْتَ صَائِحَةٍ ، فَقَالَ: "لِمَ تَبْكِينَ؟ فَلا تَبْكِي ، مَا زَالَتِ المَلائِكَةُ تُظِلُّه بِأَجْنِحَتِهَا" (صحيح البخاري).

وَمِنْهَا: **أَنَّ الشَّهِيدَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَعَ أَوَّلِ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ** ، فَعَنْ عَبْد اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "إِنّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنّةَ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ ، الَّذِينَ تُتّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ ، إِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا ، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ لَمْ تُقْضَ لَهُ حَتّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنّةَ ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَرِيّهَا ، فَيَقُولُ: أَيْنَ عِبَادِيَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي ، ادْخُلُوا الْجَنّةَ ، فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ ، فَتَأْتِي الْمَلائِكَةُ ، فَيَقُولُونَ: رَبّنَا نَحْنُ نُسَبّحُ لَكَ اللَّيْلَ وَالنّهَارَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ، مَنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا ؟ فَيَقُولُ الرّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَؤُلاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ "سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ" (مسند أحمد).

وَمِنْهَا: **أَنَّ الشُّهَدَاءَ لَهُمْ فِي الجَنَّةِ أَحْسَنُ الدُّورِ وَأَفْضَلُهَا** ، فَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله

عليه وسلم): "رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةِ فَأَدْخَلانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، قَالا لِي: أَمَّا هَذِهِ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ" (صحيح البخاري).

ولهذا كله كان الشهيد وحده هو الذي يحب أن يرجع إلى الدنيا ، فيقتل في سبيل الله مرةً أخرى ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا ، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرّاتٍ ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ" ، وَفِي رِوَايَةٍ: "لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ" (متفق عليه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

إخوة الإسلام:

إن بلوغ الأهداف الكبرى ونيل الغايات العظمى في هذه الحياة يستلزم تضحياتٍ جسامًا مكافئةً لها ، ولا ريب أن سمو الأهداف وشرف المقاصد ونيل الغايات ، يقتضي سمو التضحيات وشرفها ، ورقي منازلها ، وهذا حال كل من ضحى في سبيل دينه ووطنه.

وإن واجبنا تجاه وطننا العزيز وديننا القويم أن نسعى جاهدين متعاونين متكاتفين جميعًا إلى حماية أمنه والدفاع عنه ، وحمايته من أي عدو يناوئه ، أو أي خطرٍ يتهدده ، وأن نكون عيونًا ساهرةً لحماية أمنه ، وأن نتكاتف جميعًا وبلا استثناءٍ على ردع كل من تسول له نفسه أن يجترئ على وطننا ، كل على قدر وسعه ، وفي نطاق عمله ومسئولياته.

فهنيًّا لنا بجنودنا الأبطال الذين اعتصموا بحبل الله تعالى ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، واستطاعوا بعزيمةٍ قوية ويقينٍ ثابتٍ راسخٍ أن يعبروا ببلدنا الحبيبة مصر نحو البناء والتعمير ، وكل التحية للقوات المسلحة الباسلة في يوم نصرها المجيد.

وإن علينا دورًا آخر ، وهو الانطلاق والعبور إلى بر التنمية والرخاء ، والعمل والإنتاج ، لنثبت للدنيا كلها أن من عبروا خط بارليف الحصين واقتحموا حصون النيران في هذا اليوم المجيد ، أولادهم وأحفادهم قادرون على اقتحام كل الصعاب في سبيل تحقيق الأمن والأمان والتنمية والرخاء بإذن الله تعالى ، وأن نكون صفًّا واحدًا خلف قيادتنا السياسية الحكيمة ، وقواتنا المسلحة الباسلة ، وشرطتنا الوطنية ، وسائر مؤسسات الدولة الوطنية.

* * *

الفهرس